ئمازيغن أسّا

الأمازيغيون اليوم

تأليف الدكتور : سالم شاكر

ترجمة الأستاذ: عبدالله ژارو



ئمازيغن أسّ ا

الأمازيغيون اليوم

تأليف الدكتور : سالم شاكر

ترجمة الأستاذ: عبدالله زارو



اللغة والثقافة الأمازيغيتين

معطيات أولية

حينما نتحدث عن البلاد الأمازيغوفونية فإننا نتحدث عن شيء يهم في الوقت الحاضر، ما يربو عن عشرة بلدان في المغرب الكبير والصحراء والساحل. لكن المغرب والجزائر هما من بعيد، البلدان اللذان يتوفران عن العدد الأهم من الساكنة الأمازيغوفونية، وهما البلدان اللذان تطرح فيهما " المسألة الأمازيغية " بحدة أكثر.

من الصعوبة بمكان الدفع بارقام دقيقة وموثوقة عن الأهمية الديمغرافية للساكنات الأمازيغوفونية : إذ لاوجود لإحصاء لغوي كما أن اوضعية العامة (المؤسساتية والإيديولوجية والموضوعية) للغة الأمازيغية تجعل أي تقويم إشكاليا . إن أعداد الأمازيغوفونيين، يشكل في حد ذاته، وفي الواقع رهانا رئيسيا في البلدان المغاربية وهو بسبب ذلك موضوع لماحكات شديدة .

ومع ذلك . فلو عالجنا مجموع الأرقام المسجلة في مختلف المصادر أمكننا . وبشكل منطقي . أن نقدر أعداد الأمازيغوفونيين على الشكل التالي :

- نسبة مئوية دنيا تقدر بـ ٢٠٪ من الساكنة بالجزائر (أغلبيتها قبائلية) أي ما مقداره أربعة ملايين ونصف من مجموع ٢٢ مليون ونصف (إحصاء ١٩٨٦) .

- نسبة مئوية دنيا تقدر بـ ٤٠٪ من الساكنة بالمغرب . أي ما مقداره تسعة ملايين ونصف من الأمازيغوفونيين من مجموع ساكنة تقدر بـ ٢٤ مليون نسمة .

تمثل هذه الأرقام نسباً مئوية دنيا والتي يمكن إعتبارها نسبا مضمونة . لايمكننا أن نقصي إلا النسب المئوية التي هي . في الواقع . مرتفعة بشكل ملحوظ . والتي قد تطال على حدى ٣٠٪ بالجزائر و ٥٠٪ بالمغرب .

إن الأمازيغوفونية (نقصد المناطق الناطقة بالأمازيغية) موزعة بالمغرب على مجالات لهجية كبرى وتغطي مجموع المناطق الجبلية . في الشمال الريف نجد لهجة تاريفيت . وفي الوسط و الأطلس المتوسط وجزء من الأطلس الكبير نجد لهجة تمازيغت . أما في الجنوب والجنوب الغربي (الأطلس الكبير والصغير وسوس) نجد لهجة تاشلحيت.

أما في الجزائر فإن المنطقة الأمازيغوفونية الأساسية مركز في منطقة القبائل ؛ وهي ذات مساحة محدودة نسبيا . لكنها تتوفر على ساكنة كثيفة وتحتوي لمفردها . بشكل محتمل . على أكثر من ثلثي الأمازيغوفونيين الجزائريين . أما المجموعتان الأمازيغونيتان الأخريتان ذات الدلالة فهما : الشاوية بـ الأوراس : ما بين ٥٠٠,٠٠٠ ومليون نسمة

. المزاب (غرداية والمدن الإباضية الأخرى) ؛ حوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة . كما توجد مجموعات أخرى عديدة بالجزائر . لكن يتعلق الأمر دائما بجزر صغيرة على شكل بقايا لا تتجاوز ، في أحسن الحالات ، بضع عشرات أو آلاف تتكلم الأمازيغية : ورغلة ، نكوشة ، جنوب وهران ، جبل بيسا ، شنوة .

بطبيعة الحال ، ليست هذه إلا تحديدات جهوية تقليدية . فمنذ بداية القرن ، وخصوصا منذ الإنعتاق من ربقة الإستعمار ، عملت الهجرة القروية المهمة جدا ، التي شهدها المغرب الكبير ، على إيجاد مجموعات أمازيغوفونية كثيفة جدا في المدن المغاربية الرئيسية . وتمثل كلا من الجزائر العاصمة و الدار البيضاء المثالان البارزان أكثر في هذا الباب .

أما المجموعة الثالثة والأخيرة . فهي مكونة من الساكنات الطوارقية الدائمة التنقل في بلدان عديدة عبر المناطق الصحرواية الساحلية . نسجل هنا أساس النيجير (حوالي ٥٠٠,٠٠٠ أمازيغوفوني)، مالي (ثلاثمائة الى ٤٠٠,٠٠٠ أمازيغوفوني) . أما في البلدان الأخرى ، فيتواجد الطوارق بالجزائر (منطقتا الهقار و آدجر) ، وبـ ليبيا (منطقة آدجر) وفولتا العليا (منطقة ودالن) . أما نيجيريا فتضم أعدادا متواضعة من الطوارق لا تتجاوز ، في كل مرة ، بعض العشرات أو الألآف من الأفراد . يقترب إذن مجموع الساكنات الطوارقية من مليون نسمة .

تتكون البقية الباقية من المناطق الأمازيغوفونية من جد مهددة على العموم ومشتتة .

في تونس (حوالي ٥٠,٠٠٠ نسمة) ، بجربة (جزئيا) وبضع عشرات من القرى في الوسط الجنوبي للبلاد.

في الجنوب الموريطاني : (بزناكة ما بين خمسة و ١٠,٠٠٠ نسمة)

في مصر : (بواحة سيوة التي تتراوح ساكنتها ما بين ٥ و ١٠,٠٠٠ نسمة بإختلاف المصادر) .

في ليبيا (بمنطقة طرابلس : و جبل نفوسة) حيث الجماعات الأمازيغوفونية أكثر أهمية وأكثر مقاومة، بشكل ملحوظ ، بل وتعبر عن حيوية أكيدة في مواجهة قمع شديد .

أمازيغيون وأمازيغوفونيون

حتى الآن ، تحدثنا فقط عن الأمازيغوفونيين والأمازيغوفونية (أي البلاد الناطقة بالأمازيغية) . ذلك لانه وفي الوقت الراهن ، نعتبر أن المعيار البديهي أكثر ، والذي لا ينازع ، حينما نريد ضبط الساكنات الأمازيغية هو معيار اللغة . وليس معنى ذلك أن مواصفات ثقافية أخرى منعدمة أصلا (تقليد شفاهي خاص ، تراث ثقافي ، خصائص في التنظيم الإجتماعي ....) بل لأن كل هذه المقاييس الأخرى التي درست بغزارة من طرف الإثنولوجيا لها سلطة تمييزية أقل دقة .

صحيح أن الأمازيغوفونيين الذين نجدهم اليوم من خلال ممارسة لغوية خاصة ليسوا حاليا أقليات من الناحية الديمغرافية إلا لأن المغرب الكبير تعرض منذ العصر الوسيط لعملية تعريب لغوية بطيئة . معنى ذلك أن عمق الساكنة المغاربية ذو أصل أمازيغي . فالأغلبية الغالبة من المتحدثين بالعربية اليوم ليست إلا أمازيغا تعربوا . منذ تواريخ منصرمة كثيرا أو قليلا ، كان الأمازيغي يغطي أصلا مجموع المغرب الكبير والصحراء ، بل وبوسعنا القول ، وبشكل ما : (تاريخي وأنثربولوجي) ، ودون رغبة في إثارة سجال ، بأن كل المغاربيين أمازيغيون .

لكن ، ومن جهة الوقائع السوسيو – ثقافية الحالية ، من البديهي تماما أن الإنتماء الأمازيغي – أي وعي المغاربي بكونه أمازيغي – مرتبط بالبلاد الأمازيغوفونية ، ولم يعد يعني سوى أقلية – مهمة – "عرب" لأنهم – ثقافيا ولغويا – يتحددون كعرب .

بخصوص الثقافة والهوية ، يقوم الواقع دائما على مسألة الوعي .

عوامل صمود اللغة

السؤال هو الآتي : كيف حصل أن جزءا من الساكنات الأصلية ، أحتفظت بلغتها رغم الغزو العربي ، الأسلمة والدمج القديم جدا في الجرة العربية الإسلامية ؟ من خلال التعارض مع ما نعرفه عن صيرورة التعريب في المناطق التي أصبحت العربية لغتها ، يمكننا ، مع بعض التحفظ ، الدفع بمجموعة من الفرضيات المفسرة مع الإقرار بأن الأسباب متعددة ومتداخلة . فكل جهة أمازيغوفونية تستحث وتستحق مقاربة خاصة ؛ دون أن يترتب عن ترتيبها أية تراتبية من نوع ما . سنطرح الفرضيات الآتية :

* الجغرافيا

نشير هنا أساس الى إنزواء المناطق الجبلية على نقيض المناطق السهلية والسهول العليا المتاخمة للصحراء ، التى تعرضت لتعريب مبكر لكونها تسمح بتنقل وإستقرار سهلين لساكنات عربوفونية آتية من الشرق ولولاة السلطات الحضرية العربوفونية .

* الديموغرافيا

ظلت البلاد الأمازيغوفونية متواجدة في المناطق ذات الكثافة

السكانية القوية ، حيث كان التواجد البشري معروفا أصلا بكثافته بما فيه الكفاية ومن ثم لايسمح ، إلا بصعوبة ، بتسرب عناصر خارجية . في حين أن التعريب تنامى ، بالاخص ، في المناطق التي يقل فيها التواجد البشري (المناطق الرعوية ، الترحالية أو الشبه الترحالية أو حتى)

* نظام الإنتاج وحيازة الأرض

يبدو ، بشكل ملح ، أن البلاد الأمازيغوفونية ، حافظت على إستمرارها بشكل أفضل في المناطق ذات التقليد "البدوي" المرتكز أساس على الأرض والحيازة الفردية القديمة للأرض (حتى وإن وجدت هناك أشكال من التدبير والإستغلال الجماعيين) وذات كثافة بشرية قوية كما سبق أن رأينا . إن الجماعة القاعدية - القرية عوض القبيلة - هي ها هنا إقتصادية أكثر وطوبوغرافية أكثر مما هي جينيالوجية . نشير هنا فقط الى أن هذه الحالة تعرف إستثناءات جلية .

على الضفة الأخرى ، نجد أن مناطق التعريب القديمة والواسعة هي بالأحرى مناطق رعوية ، ترحالية أو شبه ترحالية ، وفي المجتمعات "الفلاحية - الترحالية - تعتمد أساس روابط الدم أكثر من رابطة الأرض . لايتعلق الأمر هنا إلا بميول ، لكنها تمكننا أفضل من فهم الصيرورات والتطورات المتشعبة . ففي الحالة الأولى نحن إزاء جماعات قروية مرتبطة بالأرض تقيم فيها وتستغلها بشكل بشكل مكثف فتكون الساكنة ذات أعداد مهمة . أما في الحالة الثانية ، فهناك مجموعات مائعة ذات أعداد أقل والتي تكون فيها كل أشكال التضامن عرقية أساس .

في الوضع الأول حصل إستقرار سكاني مطبوع بالإكتظاظ في مجال ترابي معين يستحيل على أي أجنبي أن يتسلل إليه . أما

في الوضع الثاني فنجد حيازة مترامية ، ظرفية تسمح للوافد الجديد بالتسلل بسهولة ، وهو تسلل يكون جسديا في البداية ثم إجتماعيا من خلال لعبة التحالفات والقرابة التي لها من القابلية أصلا ما يجعلها قادرة على خلق تضامنات جديدة ومشروعة .

عموما ، وكما رأى ذلك منذ مدة طويلة كاتب كـ (و-ف-كوتييه) (مستعيدا في ذلك رأي ابن خلدون) يمكن القول أن أوجه التشابه الحاصلة بين أنماط عيش الرحل الأمازيغ بالسهول العليا وسفوح الجبال المتاخمة للصحراء وأنماط عيش العرب البدو القادمين الى المغرب الكبير إبتداء من القرن XI يسرب الإنصهار بين المجموعتين العرقيتين .

في حين أن كل شيء عند البدو المستقر بين الأمازيغ يتناقض مع ما عند الوافدين الجدد .

* البنية الإجتماعية

تمكن الطابع الإنقسامي المعمم الذي طبع المجتمعات الأمازيغية القديمة من تشكيل تلك الأداة الدفاعية ضد التدخل الأجنبي . لكن هذا العامل ليس عاملا محددا إلا في تداخله وتظافره مع واحد أو عدد من المقاييس القديمة . فعلى مستوى الواقع ، وحسب المعطيات الجيوديموغرافية والإقتصادية إستطاع نفس التنظيم الإجتماعي القاعدي إنتاج مفعولات متناقضة تماما . فإذا مثل عامل مقاومة في المناطق ذات التقاليد "القروية" فإنه لعب (بالعكس) دور الناقل للإختراق العربي للمناطق الفلاحية .

* السياسي

إن الجزء الأكبر من المناطق الأمازيغوفونية هي من المناطق التي دأبت منذ العصر الوسيط على ربط علاقات صراعية مع مختلف

أنظمة الحكم المركزية التي لم تنجح أبدا في مراقبة هذه المناطق مراقبة دائمة وكانت، على العموم ذات حياة سياسية مستقلة . إن تأثير وإدارة الحكم المركزي .

وإذن التقليد الحضري العربوفوني ، لم يمارسا بشكل مباشر ، في هذه المناطق إلا نادرا . بل إن الإسلام نفسه ظل يتمتع فيها بإستقلالية ، على نطاق واسع ، على أية حال كان إسلاما يعلن تميزه ، حتى صعود الدول الحديثة . ونشير هنا إلى أن العوائد الدينية القبائلية والشلحية والأطلس متوسطية ذات أصالة واضحة بهذا الخصوص . تنضاف لهذه العوامل الأساسية بالتأكيد عدة أسباب محلية خاصة . فالبلاد الأمازيغوفونية بالمزاب ، مثلا ، تقوت بالتأكيد من خلال تميزها الديني الإباضي . أما في العالم الطوارقي فقد أسست خاصيات عدة كنمط العيش والثقافة والتنظيم السياسي (مع أقطاب الحكم المتواجد فوق القبيلة) .. ، ولمدة طويلة ، وعيا قويا بالهوية وساهمت في الحفاظ على اللغة عند الطوارق .

تنوع الوضعيات الحالية

نسجل في البدء أن اللغة الأمازيغية التي تعرف تغيرات مهمة في وضعها العام بإختلاف البلدان والمناطق التي توجد بها . سبق لها وأن تعرضت لمنافسة وتآكل ، على إمتداد قرون ، من طرف العربية ، وأدمجت في إطارات جيوسياسية جد متمايزة منذ الإستقلالات .

إن أول تمايز جلي نضبطه على مستوى المعطيات الميدانية (وحظوظ حفظ البقاء) التي تهم التجمعات الأمازيغوفونية الكبيرة (الجزائر : أوراس ، قبائل / المغرب : ريف ، أطلس متوسط ، سوس) والجزر الصغيرة التي لاتكاد تعد في الجزائر الوسطى والغربية ، تونس والصحراء . تضم التجمعات الأولى ساكنات كبيرة تبلغ أو تتجاوز

المليون نسمة وغالبا ما تكون كثيفة من حيث الإستقرار في المجال . أما المتحدثون بلغة واحدة في هذه التجمعات فكثيرون (النساء ، الشيوخ ، الأطفال دون سن التمدرس) .

أما التجمعات الثانية فتجمع بضع مئات الى آلاف نسمة . وبحكم إندماج هؤلاء في أوساط عربوفونية التي هم في علاقة قارة معها فإن الإزدواجية اللغوية معممة في هذه التجمعات . أما حظوظ حفظ البقاء (اللغوي) لهذه الجماعات فضئيلة في الظروف الحالية والتي يشتد فيها ضغط العربية عبر المدرسة ، وسائل الإتصال وتمازج الساكنات . هكذا ففي ورغلة (بالصحراء الجزائرية) ، أصبح السكان الأصليون الأمازيغوفونيون أصلا ، وفي ظرف عقدين ، أقلية بشكل واضح ، وذلك منذ أن أعلنت مدينتهم "عاصمة البترول الجزائرية" مع ما استتبع ذلك ، ومباشرة ، من تقاطر غزير للساكنات الخارجية .

يتعين إبراز فارق ثان كبير بين المغرب الكبير (الجزائر والمغرب أساسا) وبلدان الساحل (النيجر ومالي). فالسياقات التاريخية والمؤسساتية والإيديولوجية مختلفة بينهما بعمق .

فهي بالمغرب الكبير ، تعرف الدول دستوريا كدول عربية إسلامية . أما السياسة اللغوية والثقافية التي يدعى اليها والمطبقة فعليا منذ الإستقلالات السياسية فتجعل محورها هي سياسة التعريب . أما اللغة الأمازيغية فلا مكان لها لا في الخطاب ولا في الممارسات المؤسساتية . وحينما يكون الخطاب الرسمي (أو المهيمن) واضحا، فيبدو من خلاله وبجلاء أن إحدى الأهداف الأساسية للسياسة اللغوية هي القضاء على الأمازيغية . فالتنوع اللغوي يعتبر خطرا على الوحدة الوطنية ، ينظر إليه كبذرة تقسيم . يجب على الوحدة اللغوية أن تتمم بناء الأمة .

ففي الواقع ، ما يطبق في هذه الدول ليس سوى تجسيدا سياسيا لخيارات إيديولجية عميقة وقديمة للحركة الوطنية المغاربية (التي هي متجانسة في هذا المجال) . فمنذ إنطلاقة الوطنيات المغاربية حصل دوما تحديد الهوية الوطنية والدول – الأمم المزمعة كعربية إسلامية . هذا التوجه هو من التجذر بحيث كان يستند على انتساب مزدوج :

النموذج الإسطوري للمدينة الإسلامية المتجانسة الموحدة حول الأمير الزعيم الشرعي لجماعة المؤمنين .

النموذج الفرنسي للدولة / الأمة المركزية ، الموحدة لغويا وثقافياً .

أما في الجزائر فقد عززت راديكالية سياسية إثباتية أكثر (وبالأخص داخل الفصيل "الشعبوي الإستقلالوي" للوطنية : نجمة شمال أفريقيا ثم حزب الشعب الجزائري والحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية وجبهة التحرير الوطني) أقول عززت تلك الراديكالية ميلا الى رفض التنوع . إذ الخلاص والأمة هما في الوحدة .

لكن مع ذلك فهذا الطرح للمعطيات المغاربية فيه من الإختزال ما فيه ومقاربة أكثر دقة ستقود الى إدخال تدقيقات محددة بين كل من المغرب والجزائر . في المستوى الأول للمعاينة ، يبدو أن رفض البعد الأمازيغي هو أشد عنفا وأكثر جلاء بالجزائر منه بالمغرب . فالنزعة العروبية للدولة الجزائرية هي أشد إندفاعا عما هي عليه في حالة المغرب . وبالنتيجة ، فإن المعاداة للنزعة الأمازيغية سوف يكون خطا بارزا في التقليد السياسي الجزائري . عدم التسامح هو تقريبا مطلق بالجزائر بما في ذلك داخل قطاع البحث العلمي والجامعة أو الفضاء الجمعوي . بينما للمغرب ، في هذه المجالات ، ممارسة أكثر ليبرالية ولو أن أنه ليس بإمكاننا الحديث في ما يخصه عن تكفل بهذه المسألة أو تشجيعها .

بالمغرب . هنالك حرية عمل في هذا الإطار طالما أن أي نشاط أمازيغي لايخرج عن الأطر الأكاديمية والجمعوية بينما نقمع في الجزائر تقريبا كل ما يتحرك لصالح المسألة الأمازيغية .

لاترجع هذه الإختلافات في التعامل مع المسألة الأمازيغية الى " ليبيرالية " سياسية أكبر في الدولة المغربية. بل تفسر أساس من خلال الوزن المختلف الذي هو من نصيب مسألة الهوية والثقافة في صيرورة بناء الدولة المغربية وفي الرهانات السياسية والإيديولوجية الخاصة بهذا البلد . فالتوجه العروبي - الإسلامي وموضوعة الوحدة يلعبان - تاريخيا - دورا مركزيا بارزا في البناء الوطني بالجزائر أكثر مما هو الشأن بالمغرب . هذا الذي يتوفر على شكل من المشروعية المؤسسة غير معروفة بالجزائر . يتعلق الأمر بالمشروعية الملكية التي تتعالى على كل العوامل الأخرى وتقيم رابطة مباشرة وشخصية بين كل مغربي والدولة المجسدة في الملك . هكذا فإن وجود نقطة الإرتكاز هذه في الحالة المغربية يجعل نسبيا (دون أن يقضي عليهما بطبيعة الحال !) دور كل من العروبة والإسلام في عملية تحديد وتعريف الهوية القومية المغربية . إن الطابو الأعلى في المغرب يتجسد في المشروعية الملكية . في حين يتجسد بالجزائر في التوجه العروبي الإسلامي . (والحزب الوحيد)... إن إثبات الذات الأمازيغية هو إذن أكثر إثارة لـ "الشغب" بالجزائر منه بالمغرب . لكننا نعرف جيدا - التاريخ لايزال طريا بهذا الخصوص - أن صحوة أمازيغية بالمغرب ذات دلالة حملت معها سلسلة من التساؤلات العميقة ، بما في ذلك داخل ميدان المشروعيات التاريخية . وتبقى الذاكرة الأمازيغية حبلى ببدائل أخرى .

في المقابل ، نجد في بلدان الساحل (النيجير و مالي بالأساس) أن للأمازيغية في حلتها الطوارقية منزلة قانونية رسمية بإعتبارها "لغة وطنية" في تضامن مع لغات محلية زنجية افريقية أخرى . أما

الفرنسية فتلعب دور " اللغة الرسمية " إن هذه البلدان تضم إثنيات متعددة وليس لوجودها كدول أي عمق تاريخي إذ أن شكلها كدول كان نتيجة مباشرة لتقسيمات إعتباطية من صنع المستعمر . تنعدم بها لغة أو تقليد ثقافي محلي يمارس سيطرة قديمة ومترسخة . أما علاقتها بالقوة الإستعمارية القديمة وباللغة والثقافة الفرنسيتين فتختلف تماما عما هو سائد بالمغرب الكبير . ومع وجود كل هذا ، فإن وضعية الطوارقية . ولو أنها تحظى بمنزلة قانونية تجعلها "لغة رسمية" – وضعية بعيدة عن أن تكون مثالية . ففي المقام الأول ، نسجل هنا أن كلا البلدين مالي والنيجير فقيران وعرضة لصعوبات إقتصادية في غاية الخطورة – فالجفاف الذي ساد بهما منذ سنوات أسهم في تسريع عملية تقويض مجتمعات الرحل كالمجتمعات الطوارقية . بل وبتخفيض مستوى عيش الساكنات المعزولة سلفا . وأصبحت المشكلة المطروحة حاليا في هذين البلدين ، وبشكل متعاظم ، تتمثل في ضمان حفظ بقاء الساكنة وحفظ بقاء لغتها وثقافتها على حد سواء . يتعين كذلك ألا نبالغ في فهم حمولة المنزلة القانونية للغة الوطنية الطوارقية ، لا لشيء إلا لأن الفرنسية تبقى في هذه البلدان ، ومن بعيد ، اللغة المهيمنة والشبه الوحيدة داخل المؤسسات ، وبالأخص في النظام المدرسي . إن الأخذ في الحسبان للغة الطوارقية لما يزل في طوره الجنيني ولا يتجاوز مبادرات تجريبية محلية : محو أمية البالغين ، أقسام تجريبية بعض المنشورات (متواضعة جدا وتسحب منها أعداد ضئيلة) باللغة الطوارقية ..

أكيد أن الإطار السياسي والقانوني لتنام وإرتقاء مستقبليين للغو الثقافة الطوارقيتين موجود وقائم ، لكن لازال نظريا جدا ، وذلك ، في آن واحد ، بسبب المشاق العامة التي يواجهها هذا البلدان وأيضا بحكم الضعف العددي والنوعي للنخب الطوارقية ذات التكوين

الحديث . يضاف الى كل هذا العداوة المستحكمة في المجال السياسي والتي تكنها السلطات السلطات المركزية المراقبة من طرف السود للساكنات الطوارقية المهيمنة منذ القدم على هذه المناطق . هنالك ما يشبه جوا من تصفية حساب تاريخية مع الطوارق الذين يتم وضعهم عموما في منأى عن الحكم بإعتبارهم يشكلون خطورة محتملة عليه عليه وأنهم يزعزعون الإستقرار ويخضعون لنظام إداري شبه عسكري سواء بالنيجير أو بمالي .

ويبقى التلويح بمقولة " يد القذافي" من طرف الحاكمين كلما أريد تبرير الممارسات القمعية الدموية في بعض الأحيان . وإجراء ات الاستثناء الموجهة ضد الطوارق .

المستقبل

حتى عهد قريب . كان أبرز المتخصصين في شؤون المغرب الكبير يرى أن إنصهار العنصر الأمازيغي في البوتقة العربية آت لاريب فيه . وللاقتناع بذلك . يكفي لربما قراءة التشخيص الذي قام به الجغرافي المقتدر (H.Isrand) وقال فيه بالحرف :" إن صيرورة لا محيد عنها ترجع كل يوم بالواقع الأمازيغي القهقري (....) فبعد تحقق الإستقلالات الوطنية لن يكون بوسع أية مقاومة أمازيغية إلا أن تؤدي الى معارك غير ذات جدوى ومتأخرة ضدا على إكتمال عملية الإندماج من خلال التعريب "

وهناك تشخيص آخر حديث العهد لعالم الإجتماع البريطاني (Ch Micaud) يقول فيه (نورده كما هو في النص الفرنسي باللغة الانجليزية المترجم)

There is a remarkable consensus ... concerning the"

alisence of a serious Beber problem at least in the present and
"foreseable future

ومع ذلك ، نود الإشارة بهذا الخصوص الى أن أي تنبوء لاتمكن المجازفة به إلا بكامل الإحتراس . ففي مجرى هذا القرن ، كانت هناك وضعيات أكثر عرضة للخطر من وضعية الأمازيغية والأمازيغ ، والتي شهدت مع ذلك تطورات غير متوقعة . بل وغير بعيد عنا ، فقط قبل أقل من ٥٠ سنة، بدأ تحرر وإنعتاق البلدان المستعمرة ، وبالأخص الجزائر - للملاحظين الأكثر وجاهة كمحض يوطوبيا .

أكيد أن معظم العوامل القديمة المحركة للمقاومة لدى الأمازيغ أختفت بشكل نهائي . وهاهنا بالضبط تلعب اللغة الأمازيغية ، في هذه اللحظة بالذات (وفي العقود القليلة القادمة) حظها التاريخي الأخير : أن تكون أولا تكون . هاهي ذي المسألة المطروحة من الآن فصاعدا على الأمازيغوفونيين الذين لم تعد لغتهم ولا ثقافتهم محمية من طرف الجغرافيا ولا من طرف أشكال التنظيم الإجتماعي التقليدية .

هجرة قروية كثيفة تصاحبها حركة حضرية داخل المدن ذات الأغلبية العربية . إختفاء خلايا وانماط الإنتاج التقليدية ، تمدرس مكثف باللغة العربية ، بنشاط يومي للإذاعة والتلفزة . كل هذه العوامل تهاجم بعنف غير مسبوق الصرح الأمازيغي . بل حتى النساء الحاميات تقليديا ، للغة والثقافة أصبحن عرضة مباشرة لهذا الإنجراف .

ومع ذلك ، فلازالت هنالك عناصر تؤسس لتفاؤل واقعي ، وحتى ولو كان صعبا بمكان تثمين حظوظهما وسيرورتها .

يمكن أن نقول أنه حصل تحول أساسي منذ الإستقلال

فلقد تقوى الوعى الوعي بالهوية ، بشكل رائع، وأصبح إثبات الذات الأمازيغية ظاهرة جماهيرية تمس شرائحا واسعة من الساكنة القبائلية، وبالأخص الشباب قد تبدو هذه الوضعية، في هذه اللحظة ، خاصة بمنطقة القبائل . وقد يكون من قبيل المجازفة سحبها بشكل ميكانيكي على أماكن أخرى إنطلاقا من حالة القبائل . لكن مؤثرات عدة تسمح بالقول بأن تطورات مثيلة لا تستبعد في مناطق أمازيغوفونية أخرى. حتى ولو أن المسارات والسياقات تختلف . إننا نتبين فعلا إرهاصات لظواهر موازية لما يحصل بالقبائل .

هكذا تتجلى صحوة للوعي الأمازيغي بالمغرب في التشكل السريع لجماعات عملية متمازغة ومستقلة وعازمة وكذا في التجارب الجمعوية وظهور النشر بالأمازيغية ، والتي لا زالت كلها ، صحيح ، متواضعة .

أما في الوسط الطوارقي ، فإن صيرورة مماثلة ومحدودة جدا حتى الآن هي بصدد الظهور . فالشباب الطوارقي يتفرغ أكثر فأكثر ، سواء في مؤسسات التكوين الزنجية - المالية أو في الخارج ، لدراسة تراثهم الثقافي ولغتهم ومجتمعهم.

بالمهجر يمكننا الحديث عن إنبعاث حقيقي للنشاط الثقافي الأمازيغي منذ بداية الثمانينات . تمثل ذلك في مضاعفة وتعزيز الجمعيات الثقافية وفي البرامج الإذاعية وكذا اللقاءات والتنشيطات المختلفة والتحسين النوعي الملحوظ جدا للنشر بالأمازيغية . وكلها معالم محمودة (أنظر الفصل ٤) حتى في الأطراف المنسية في الغالب ضمن البلاد الأمازيغوفونية كما هو الشأن في ليبيا ، أخذنا نتبين علامات واضحة دالة على وعي بالذات ، خصوصا عبر المطبوعات والأغنية .

فإذا جمعنا أجزاء هذه القطعة . سوف نكون مجبرين على الإقرار بكون "الميدان الأمازيغي يتحرك " في كل مكان وأن عملا في إطار الإنتاج و(إعادة) البناء يسير قدما . إن فضاء ثقافيا وفكريا وعلميا عبر وطني (transnational) أمازيغي هو بصدد التشييد . وهذا شيء أساسي بالنظر الى المستقبل . وتبقى الوضعيات متنوعة لكن الخيوط تنعقد في كل مكان وأعيد إيقاد مشعل الوعي .

إنه في حكم المؤكد أن الوضعية العامة للأمازيغ واللغة الأمازيغية هي وضعية صعبة . وأنواع التقدم الحاصلة حتى الآن هي جد بطيئة . فليس من السهل تجويز كون مرجعيات مختلفة بالمغرب الكبير بإمكانها أن تتعايش وأن تكون مشروعة في نفس البلد . لكن لكن المثقفين الأمازيغيين من خلال إنتاجاتهم والأمازيغوفونيين من خلال أشكال مقاومتهم نجحوا في بضع سنين في فرض النقاش حول موضوع - طابو منذ ما يربو عن نصف قرن . وإن هذا لوحده لشيء كثير!.

منذ سنوات فقط كان كل طرح لـ "المسألة الأمازيغية شيئا غير قابل للتصور بالمغرب الكبير : إذ كان يواجه بكل قوانين العيب والإتهامات الدامغة .

ولم تعد الحالة الآن كما كانت عليه في الماضي . وهذا دليل على أن العمل لم يذهب سدى وأن الأفكار التي روجوها شقت طريقها .

إن الطموح الأمازيغي بدأ من الأن فصاعدا . في التعبير عن نفسه بشكل مفتوح وصلب أكثر فأكثر . وأخذ يقلب رأسا على عقب الوسط الفكري والسياسي المغاربي . فلقد حصل تقدم تاريخي حقيقي في ظرف عقدين .

ئمازيغن أسّ ا

أكيد أن الأمازيغ ليسوا بعد جنساً في طريقه الى الإنقراض . وعلى المختصين في شؤون المغرب الكبير أن ينجحوا في إستلهام الشهادة المشوبة بالإحتراز لـ (جان كلوزيل ١٩٦١) (J.clauzel) :

" بخصوص المستقبل ، وعندما يتعلق الأمر بهؤلاء الأمازيغ الذين نادرا ما يكونون أسيادا مطلقين على مصيرهم. لكن الثائرون بسهولة ، المغلوبون في الغالب ، لكن الذين لم يتم إحتواؤهم أبدا – مشتتون منذ قرون، لكن متميزون بشكل لامع دائما ، أقول إذن بخصوص المستقبل وعندما يتعلق الأمر بهؤلاء سوف يكون لا محالة من باب الحكمة الإحتراس من كل حكم نهائي "

ألا ، فلا يفرحن الزملاء المتضلعين الذين ترقبوا انهيارهم الآن .فالأمازيغ لا زالوا قادرين على المساهمة في نحت وجه مغرب الغد الكبير .

منطلقات تاريخية

ترجع أولى التمظهرات الجلية للوعي بالذات الأمازيغية ، في الحقبة المعاصرة الى أواخر القرن التاسع عشر بمنطقة القبائل . وهي تمظهرات من النوع الحديث بطبيعة الحال (سأعود الى هذا المفهوم في الفصل الخامس) . نقول هذا ، لأنه يتعين أن يكون واضحا بأن الوعي القبائلي بالهوية - كما هو الشأن في المجموعات الأمازيغوفونية الأخرى لم يولد فجأة في القرن العشرين . إنه وعي قابل للضبط - ليس فقط من خلال التاريخ السياسي للمناطق الأمازيغوفونية التي كانت تقوم بردات فعل ككينات مستقلة منذ عدة قرون ، وبالأخص تجاه الغزو الإستعماري (القبائل - المغرب الأوسط- الريف ...) - ولكن أيضا من خلال التعبيرات الثقافية ، وبالأخص الأدبية منها . ففي القبائل بالقرن ١٩ كل عصب شعر المقاومة (ابن ابراهيم ١٨٨٢) يشتغل بوضوح ، على قاعدة من الإحالة الى كيان قبائلي . وفي مستوى أعلى يقر ويعترف بالجماعة الإسلامية (المتجسدة حينها في إسطانبول) والتي يعتبر أتراك الجزائر العاصمة ، أحيانا ممثلين محليين لها (ينظر اليهم - أي الأتراك - في واقع الأمر وفي الأغلب الأعم كقوة خارجية دخيلة) ولانجد في هذا الشعر أي أثر لإحالة الى مستوى وسيط (جزائري أو مغاربي) .

حتى في فترة إنهيار المجتمع التقليدي بعد إنتفاضة ١٨٧١ ظل شاعر كبير كسي موحاند لسان حال القبائل . وإن كان ممثلا ، بما فيه الكفاية ، لمصير كل الجزائريين ، فإن القبائلي ، ويبقى متن النصوص الأدبية القبائلية ، وتجعله يتجه أساسا الى الجمهور القبائلي . ويبقى متن النصوص الأدبية القبائلية للقرن ١٩ وافرا وفي المتناول إن العودة

الى الأصول وتحليلها في متناول كل واحد نشير هنا الى محطات كـ (هانوتو ١٨٦٧ ، بوليفا ١٩٠٤ ، معمري ١٩٦٩ و ١٩٨٠ و بن ابراهيم ١٩٨٢)

إن الإحساس الأمازيغي بالهوية له إذن جذور تاريخية قديمة تمظهرت قبل قبل الفترة المعاصرة بكثير ، وليس كما ينزع الخطاب القومي العربي الإسلامي الى جعل الناس يعتقدون به أي كمسألة أختلقها الإستعمار إختلاقا . ومع ذلك فإننا لا ننكر أن للإكتساح الفرنسي آثار هامة في هذا لاميدان : كما هو الشأن على أي ، وبشكل عام ، على مستوى بروز الوعي الوطني . وهنا نشير الى أن الوطنية الحديثة ، سواء بالمغرب الكبير أو في العالم العربي هي منتوج دخيل - صحيح أنه تكيف مع المناخات المحلية - لكنه يبقى دخيلا لأنه إفراز مباشر للأفكار والقيم التي جعلتها العلاقات بالغرب وبالإستعمار تروج في مجتمعاتنا .

الرواد الأوائل: العصب الثقافوي

من الفضاء الجماعي التقليدي الى الهوية الأمازيغية

لقد حدث أكبر تحول في أواخر القرن ١٩ مع ظهور خطاب أمازيغي وصورة عن الذات من النمط الحديث بمنطقة القبائل .

في ما قبل ، كان الوعي الجماعي القبائلي يستند على منظومة من المرجعيات التقليدية ، نذكر هنا نسيج الروابط القبلية ، مناقبية مرتبطة بتنظيم سوسيو - سياسي بدون رأس (أو انقسامي) وكذا تقليد أدبي ، وبالأخص الشعري منه المطبوع بصرامة شديدة وأقطاب رمزية متعالية على الخلافات الإنقسامية كالزوايا والعلماء المحليين ... أما في القرن العشرين ، فقد أصبحت المرجعية الأساسية تحيل مسألة

اللغة . وفي الدرجة الثانية أضحى هناك وعي بتاريخانية الإنتماء الأمازيغي للمغرب الكبير الذي تمتد جذوره الى ما قبل الإسلام .

بديهي أن يتعلق الأمر هنا بالآثار المباشرة لإنتاج وترويج معرفة علمية بالمغرب الكبير من طرف الجامعة الفرنسية . لايمكن أن يكون للإحالة الدؤوبة الى اللغة والتوجه الأمازيغي القومي (Panberbere) وكذا لإعادة تملك التاريخ الماقبل اسلامي مصدر آخر . إن الكم الهائل من الأعمال والمطبوعات التاريخية واللغوية والأثنوغرافية التي كانت في متناول نخب محلية قلبت رأسا على عقب الصورة عن الذات التي كان من الممكن أن تكون للامازيغي عن نفسه .

أكتشف الأمازيغي بغتة أن عروبة وإسلام المغرب الكبير هي معطيات تاريخية متأخرة نسبيا وأنه يوجد هنالك تاريخ ما قبل اسلامي أمازيغي لبلده وأنه يمكن إعتبار لغته بمثابة اللغة الأصلية الوحيدة للمغرب الكبير وأن هنالك من يتحدث بها خارج منطقته الصغيرة التي هي مسقط رأسه وأنها تتوفر منذ التاريخ القديم الغابر على أبجدية خاصة بها .

ففي الواقع . يمكن القول أن العلم الغربي يفتح للمثقف القبائلي آفاقا لا غبار عليها , وذلك لكونه يمده بإخبار وأدوات لمقاربة ثقافته وبحجج ومراجع جديدة كل الجدة . إن الدراسات المتخصصة في الأمازيغية تثمن لغته وتراثه وذلك بتأسيسها كموضوعات بحث علمية . أما الأعمال التاريخية والسوسيولوجية فتعطي لهذه اللغة ولهذا التراث مشروعيتهما التاريخية والمغاربية .

بين كل هذه المراجعات (تاريخية . ثقافية ولغوية) أن الأمازيغية لم تكن شيئا مجهولا بشكل مطلق . من قبل الثقافة وأنماط المعرفة الماقبل الإستعمارية لكنها كانت منأشد ما تكون ضبابية فالماضي

الماقبل اسلامي للأمازيغيين . مثلا كان يلحق بما قبل تاريخ ميثولوجي .

قبل الإستعمار كان المثقف يحيل القبائلي الى المجموعات القبائلية . الى القيم الإجتماعية والى العلماء وبعده أصبح يحيل الى اللغة والى التاريخ القديم والإنتماء الأمازيغي للمغرب الكبير .

هاهنا المجال الوحيد – مجال أنماط المعارف المنتشرة في المجتمع المغاربي – والتي يمكننا الحديث في نشأتها . بشكل جائز . عن أثر ما للإستعمار على المسألة الأمازيغية . أما الباقي . وأقصد السياسة البربرية لفرنسا "الشهيرة" فلا تعدو كونها أسطورة . محدودة تاريخيا وايديولوجيا (أنظر الفصل ٧) .

سلسلة المعلمين القبائليين

ينتمي الرواد من هؤلاء الى النخب القبائلية الأولى المكونة بالمدرسة الفرنسية . فالبنسبة لهؤلاء . يقظة الهوية هي، قبل . يقظة ثقافية تسلك حالا طريق الإنتاج العلمي (اللغة . الأدب . التاريخ الأمازيغي ..) تضمر هذه الموجة الأولى عددا كبيرا من المعلمين أشهرهم بلا منازع (عمار أو سعيد بوليفا) من قرية آدني بـ آيت إراثن ومؤلف ديوان الأشعار القبائلية (١٩٠٤) . وكتاب اللغة القبائلية (١٨٩٧ . ١٩١٣) . وعددا آخر من الأعمال الإثنو . - تاريخية – من ضمنها . مونوغرافيا تاريخية للقبائل (١٩٢٥) التي تظل في نظري ذات أهمية خاصة .

أشير هنا أنه لا يتعلق الأمر بحالة (أو ببضع حالات) معزولة . أكيد أن عددا ضئيلا هو الذي بلغ حدا من الشهرة وكانت له منزلة جامعية التي كانت لـ بوليفا . لكن هؤلاء الرواد كانوا عديدين في الأجيال المتعاقبة من المعلمين حتى عهد الإستقلال . هؤلاء المثقفون القبائليون الذين استشعروا ضرورة صيانة ثقافتهم ولغتهم كانوا

عشرات وعشرات . ملأوا دفاترهم المدرسية بالأشعار المأخوذة من مختلف الأماكن التي طبعتهم وملأوها بالأشكال والتعابير والكلمات المأخوذة من الأماكن التي كانوا يزاولون فيها عملهم . إن محاولات إرساء أنواع من "النحو" الأمازيغي" والقواميس الأمازيغية التي شرعوا في القيام بها كانت وافرة أيضا . فلاتوجد قرية مهمة بالقبائل لانقدم لكم فيها واحدا من هؤلاء المعلمين – إن كان لازال على قيد الحياة - أو الحديث لكم عن " دفاتر" من النوع الذي ذكرت من طرف أحد المتعلمين المحليين .

لقد تكفل إذن هؤلاء المثقفون المحليون الأوائل ذوو التكوين الغربي . أو على الأقل حاولوا كل من موقعه . بلغتهم وثقافتهم . وقد تم ذلك في الغالب . على أساس من مناهضة للطروحات المهيمنة آنذاك . نجد تشخيصا نموذجيا لذلك في النقد الصارم الذي قام به (بوليفا) لوضعية المرأة القبائلية منظورا اليها من طرف الاثنوغرافيا الإستعمارية (مدخل لـ "ديوان الأشعار القبائلية" لقد كانت أعمال هؤلاء المعلمين مطبوعة عموما بطابع "الدفاع وتوضيح اللغة والثقافة الأمازيغيتين" أما تقييماتهم . بالأخص للتراث الأدبي فكانت على طرفي نقيض مع إجتهادات الفرنسيين في تلك الفترة . هذه التي كانت تحكم على التراث الأدبي تقريبا بكامله بكونه "فقير" بدائي وفج ومكرر لنفسه وتابع للنماذج العربية الإسلامية " (أنظر هانوتو ١٨٦٧ وباسي ١٩٢٠) والسبب في هذه الأحكام يرجع الى أن المتخصصين الفرنسيين في الأمازيغية لايولون . بالضرورة . لثقافة المدروسين تقديرا عاليا : لذى ما يفوه به (هانوتو) بهذا الصدد :

" هناك حاجة الى القول بأنه يجب علينا ألا ننتظر العثور عندهم على أدب يذكرنا ، ولو من بعيد ، بآداب الأمم المتحضرة (...) يشكل النساء العدد الأكبر من منتجي هذا الأدب البدائي (...) فبحلولهن

هذا المستوى المتواضع، يمكنهن ، دون أي ضرر ، على ما أعتقد ، دعم الموازي لهن ... إن تذكر هذا الأصل سوف يجعل الصفح أكثر سهولة ... (هانوتو ، ١٨٦٧ ، مدخل)

لربما كانت هذه العلاقة المختلفة جدا مع موضوع الدراسة سببا في التحفظ الشديد الذي يبديه عدد من المتخصصين الفرنسيين في الأمازيغية تجاه "زملائهم" المحليين (كسيد كاوي ، عباس ، بوليفا ...) .

لقد أشاعت هذه الأعمال الأولى المحلية المكتوب في المجتمع القبائلي حتى بلغ شأوا لم يبلغه قط الى ذلك الوقت . لأنه ، وخلافا لمنطقة سوس ، فإن القبائل لم يوجد بها تقليد سابق للكتابة الأمازيغية بالحروف العربية (إن كانت هناك حالات فهي دائما استثنائية) . ومن وراء الإستعمالات الفعلية - هذا المكتوب يبقى أساسا سلبيا - فإن الأر الرمزي قد يكون حاسما لتثمين لغة ، ذلك أنه يجسد فكرة مفادها أن "الأمازيغية لغة تكتب" .

لقد عمل التمدرس القديم والقوي نسبيا بالقبائل - والذي كان مضمونا من طرف هؤلاء المعلمين أنفسهم والمتخصصين الفرنسيين في شؤون الأمازيغية - على أن يمس التحسين بالتراث والمكتوب الأمازيغي شرائحا مهمة في المجتمع . إن المعرفة الأمازيغية الحديثة ليست محصورة في نخبة ضيقة ذات مستوى جامعي . فحتى ولو لم يكن بإمكاننا الحديث عن ظاهرة جماهيرية فعلية - نحن أبعد ما نكون عن ذلك - فإن تلك المعرفة تهم ، مع ذلك أوساطا ذات تكوين فكري متوسط جدا إن لم يكن متواضعا في الغالب . فلقد وجدنا بحوزة صانع بقرية أزوزا (بآيت ايراتن) منذ ١٩٢٠ دفاتر شعر محررة بالحروف اللاتينية .

الكتاب الكبار

أضحى عدد من الأسماء المشهورة بالتأليف باللغة الفرنسية محسوب على هذا العصب "الثقافوي" المرتبط أشد الإرتباط بمهن التدريس والكتابة . نذكر منهم جان طاوس عمروش ، مولود فرعون ، مولود معمري .

بالتأكيد ، فإن شهرة هؤلاء أتت من كونهم أصلا يكتبون بالفرنسية لكنهم وبدون إستثناء ، وبموازاة مع إبداعاتهم الأدبية ، أثبتوا دائما إنغراسهم في الثقافة الأمازيغية ، وعملوا بالملموس من أجلها من خلال عمل دؤوب يهدف الى الرقي بهذه الثقافة .

الأشعار الأمازيغية للقبائل (١٩٣٩) لجان عمروش ، أشعار سي موحاند (١٩٦٠) لمولود فرعون ، والحبة السحرية (١٩٦٦) ، اسطوانات وحفلات الأهازيج القبائلية القديمة لطاوس عمروش ، اسفر السي موحاند (١٩٦٩) الأشعار القبائلية القديمة (١٩٨٠) لمولود معمري . كل هذه العناوين بمثابة تواريخ كبيرة دالة على هذا العمل .

أما بخصوص "يوكرتن الخالد" (١٩٤٦) ، وهي المحاولة التي أنخرط فيها جان عمروش ، بحزم ، في المعركة الإيديولوجية ، فنشير أن مصادر هذه المحاولة ليست في حاجة الى توضيح ، وتسمح في الوقت ذاته بقراءة "قواميسه" وبقراءة "متمازغة"

كما أن نتاجات هؤلاء بالفرنسية مطبوعة جدا بالمرجعية القبائلية وبالتجذر في منطقة . وفي استقلال عن إنتاجهم المتمازغ المحض ، فإنه ينظر اليهم جميعهم بحكم السمات المذكورة عن نتاجاتهم ككتاب قبائليين باللغة الفرنسية. زد على ذلك أن حدة الهجومات التي تعرضوا لها من طرف ايديولوجي الوطنية الجزائرية

لاتدع أي مجال للشك في ذلك .

كان ينظر إليهم من قبل الأرثوذكسية الوطنية كعناصر مشبوهة . وكان نصيب البعض منهم وبالأخص مولود معمري . بمناسبة صدور " الهضبة المنسية " تشكيكات عنيفة (من طرف ساحلي . وزكان . الأشرف أنظر بالأخص "المسلم الشاب " بتاريخ ١٩٥٣/١٤/١٣/١٢) . وهي تهجمات وتشكيكات لم تتوقف . على أي . بل لازالت مستمرة وإن يشكل كتوم أكثر منذ الإستقلال . هذا إذ استثنينا بعض الحلقات التي بلغت ذروتها كالتشهير الذي مارسته (المجاهد :٢٠ مارس ١٩٨٠) ضد معمري . حتى ولو أن كل هؤلاء الكتاب مقررون في كتب القراءة للتربية الوطنية الجزائرية إذ لم يشفع لهم ذلك . لكن . من وراء المضمون والدلالات "المتمازغة" لنتاجاتهم . فإن صيتها الأدبي لم يكن دور في تكوين وعي قبائلي بالهوية . فقد ساهم . بقوة . في تقوية الشعور بـ "الاعتزاز القبائلي بالذات " . وهو شيء لايخفى على كل ذي عينين منذ السنوات ١٩٣٠-١٩٤٠ في المجال السياسي كما يشير الى ذلك كل من (حربي و كارليي) (١٩٨٦) .

" إن الاقتناع الشائع بالقبائل والمتمثل في التفوق السياسي على جهات أخرى بالبلد تحصل ترجمته من خلال إعتزاز معين بالذات . لم يعد القبائلي يخجل من كونه قبائليا ..." (حربي / ١٩٨٠- ٦١) .

المجال السياسي

الأمازيغيون الوطنيون : (١٩٣٠ - ١٩٥٠)

منذ الثلاثينات . رسم الصراع بين الوطني الثوري عمار إماش و مصالي الحاج ذي الإستلهام العربي الإسلامي الخط الأول لخلاف جلي بين "قبائليين" و "عرب" داخل المستويات القيادية لحزب الشعب الجزائري

(PPA) (أنظر وردان ١٩٨٦) . إن الإحالات الى التقليد الأمازيغي واضحة جلية لدى إماش بنفس القدر الذي هي واضحة بين الإحالات الى العربي الإسلامي لدى مصالي . وحتى ولو لم يتجاوز هذا الصراع مستوى زعامات . ولم يكن المعيار اللغوي يلعب في إطاره دورا ظاهرا فمن الممكن اعتباره وبمثابة التمظهر الأول والدقيق لـ"خط أمازيغي " حاضر في المجال السياسي الجزائري . ومن الطريف (هل هذا محض صدفة أو إنخراط مباشر ؟) أن تصادف بعض الطروحات المميزة لخطاب إماش . وبالأخص "الديمقراطية الأمازيغية البدائية " متمثلة في (تاجماعت) . في برنامج جبهة القوى الإشتراكية لآيت احماد في ١٩٦٣ ! .

من منطلق وجهة نظر هذه . يمكن أن تكون "الأزمة الأمازيغية" لسنتي ١٩٤٨-١٩٤٩ و الإنتاج الأمازيغي الوطني الذي سبقها وتلاها أكثر وضوحا بالتأكيد . فلقد شرع جيل منذ الشبان القبائليين المناضلين في إطار التيار الوطني الراديكالي (حزب الشعب الجزائري والحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية في كتابة الأناشيد الملتزمة باللغة الأمازيغية . وبالأخص أناشيد السير على الأقدام لحركة الكشاف المتنامية جدا في منطقة القبائل والمراقبة من طرف الوطنيين بها . تغني جزائر المستقبل بالأمازيغية . وفي الأغلب من خلال كلمات كـ : كر أميس أومازيغ (انهض يابن أمازيغ) انها فعلا لحقبة عجيبة كان فيها المناضلون الوطنيون الأصلاء الذين لم يتزعزع أبدا ايمانهم والتزامهم بالإستقلال الوطني يجرؤون داخل الحركة الوطنية الجزائرية على إعلان انتمائهم ليس فقط لرموز كماسينيسا ويوكرتن - وهو شيء لم تكن له إلا دلالة بسيطة في ذلك الوقت - بل أيضا للكاهنا . وهو الشيء الذي كان ينم سلفا عن أرثوذكسية أقل . أما الأمازيغية . بالخصوص . فقد كان يقال لنا عنها في حقبة كهذه .

تامازيغت آت تكم آت - ترنو ... (إن الأمازيغية ستتنامي وتنتعش

..) (أنظر آيت عمران : كر أميس ومازيغ، الرواية ٢) .

إننا نتوفر منذ الأطروحة (التي لم تنشر) لابن ابراهيم (١٩٨٢) على متن في المتناول . يتعلق الأمر بما يقرب من ثلاثين نصا . ألفها كتاب رئيسيون : علي لايميش ، آيت عمران ، حسين آيت حماد ، موحاند سعيد عايش ، و الطاهر و الصديق . يكشف تحليلهم التيمي استلهاما مزدوجا :

١.الوطنية الإستقلالوية والراديكالية :

وقد ارتبطت بتقليد المقاومة بالخارج . وأعلنت في وضوح الكفاح المسلح . نجد نصوصا كـ تورا قريب أنناغ (الآن سنقاتل) (آيت أحمد ، ١٩٤٥) .

آي إلمزين بكسات (يا شباب تأهبوا للقتال) (عايش ١٩٤٥)

آي إلمزين كرت فلاون !(يا شباب : انهضوا للنزال) (إيماش)

وكلها نصوص ، كما نلاحظ ، تمرر خطابا واضحا تماما .

٢.الهوية التاريخية والثقافية الأمازيغية للمغرب الكبير

نلاحظ على هذا المستوى من الإستلهام أن شبه مجموع المنطلقات التاريخية والجغرافية وكذا القيم المرجعية تستبقى من التراث الأمازيغي وبالأخص القبائلي منه:

ماسنيسا ، يوكرتن ، الكاهنا ، المقاومون القبائليون في ١٨٥٧ و١٨٧١ القبائل ، دجردجرة والجبل (أدرار) رمز المقاومة الدائم الحضور . (جبل فراتوس = أدرار نءوزال) ، إشريدن (المكان العالي للمقاومة القبائلية ضد الحشود الفرنسية) . نلاحظ أيضا حضور القيم القبائلية

حول شرف الجماعة والوفاء للأسلاف ولإرثهم الرمزي (تاجديت) أما الأصول الإثنية الحاضرة على هذا المستوى ، فكلها أمازيغية : إمازيغن ، إكاواون (أي القبائليون) ، إشاوين (الشاويون) نجد أيضا نعوت من قبيل وطنيون حقيقيون الجزائر / الجزائريون أو "الأميون" افريقيا .أما أصطلاح عربي فلم يبرز أبدا على هذا المستوى ، نفس الشيء بالنسبة لإسلام - كل ماجد هو جينيريك "السدين" الذي يمثل استثناء بهذا الخصوص (نجده أساسا عند لاميش ، ويحمل دلالة "تراث ثقافي خصوصي".

أما في ما يخص اللغة ، لانجد ضمن هذا المخزون إلا تامازيغت بينما ينعدم استعمال اصطلاح العربية (تاعرابت) انعداما كليا .

إن المعطيات التي قدمناها للتوجد واضحة ، وتبرز تسمية "الأمازيغيون الوطنيون" التي استعملناها فوق.

يتموضع هؤلاء المثقفون القبائليون المناضلون الشباب في الملتقى بين وطنية راديكالية من النوع الحديث (العلماني) والتقليد الثقافي الأمازيغي الأصيل .

هنالك إذن ما بين ١٩٤٥ و ١٩٥٠ بداخل الوطنية الجزائرية فورة أمازيغية فعليه أكثر اتساعا من الأزمة السياسية لـ ١٩٤٩ وسابقة عنها وبالرغم من المؤلفات الحديثة العهد (حربي ، آيت احماد ، وردان ، كارليبي .. أنظر البيليوغرافيا) ، فإن عددا لا بأس به من جوانب هذه "الحلقة المتمازغة" تبقى الى الآن غامضة. ويتعين ، لامحالة الإقتراب من الخلط بين المستويات . فحتى ولو كان الإنتاج المغنى موميا بنفس الدرجة التي تكون به الصراعات النيابية موحية ، فيجب وبالضرورة ، ألا يحصل الخلط بينهما ودمجهما في تيار واحد متجانس كما يقول ذلك ، بحق ، محمد حربي (١٩٨٤ ، ١٢٥) :

" يوجد من الرؤى بمقدار ما يوجد من متمازغين . إن حب الماضي (الأمازيغي) يأخذ كل الألوان التي يأخذها قوس قزح ".

من خلال هذا الجمع من المواقف ؛ يتبين أن " المتمازغين" بالمعنى الصرف (وبالأخص / سيد علي يحيا) ليسوا ، على الأرجح سوى الجناح المتطرف في الحركة الوطنية ، صمم على حفر التسوس والطرح المباشر للمشكلة في صيغة برنامج سياسي هنالك مؤشر دقيق يؤكد ذلك ويفسر ، في نفس الوقت ، الفشل الجزائري للخط "المتمازج المتشدد". فالمنتجون الرئيسيون للأغاني "الأمازيغية الوطنية " كآيت احماد عمران وهو أشد المتمازغين من بين هؤلاء - وكذلك عايش وآيت إحماد لن يسايروا رشيد يحيا في صراعه مع القيادة ، بل سيتابعون مشوارهم السياسي في إطار الحركة من أجل إنتصار الحريات وجبهة التحرير الوطني .

بخصوص الطرح الأمازيغي ،هنالك على الأرجح ، صلة قرابة مباشرة بين " المعلمين القبائليين " و" الأمازيغيين الوطنيين" وكل الشهادات التي بحوزتنا والتي تمكنا من جمعها لدى المعنيين الذين لازالوا على قيد الحياة تميل الى ترجيح عدم تأثرهم بالدراسات الأمازيغية الجامعية . لا أحد منهم عرف عنه إرتياده حلقات تدريس الأمازيغية بكلية الآداب بالجزائر العاصمة . أما وعيهم بالمسألة ونشاطاتهم لأجلها فقد بدأ وهم في سن تتراوح بين ١٨ و ٢٠ سنة حيث لازال معظمهم تلاميذ بالثانوي (سواء بابن اكنون أو في أعالي الجزائر العاصمة) مآل كل واحد منهم يبقى أمر القيام بها قائما لكنهم حصلوا كلهم ، بالتأكيد ، على مخزونهم من المعارف ومراجعهم الأمازيغية الحديثة من أسلافهم وأساتذتهم القبائليين .

فسواء إذن صعدنا حتى ١٩٣٠ مع إيماش أو بقينا في الحقبة ما

بين ١٩٤٥ - ١٩٥٠ . فإن المرور الى السياسي كان مرتبطا في الحالتين ، وبشكل وثيق بالوعي بالذات وبالإلتزام القومي .

هاهنا معطى موضوعي غير قابل للنقاش ، والذي يستحق تحليلا عن قرب . وإن (كارليي) ١٩٨٦ - على حد علمي - هو أول من أولى أهمية خاصة لهذا التدخل . فلا وجود "للمتمازغين" (بالمعنى السياسي للكلمة) خارج التيار الوطني الرايكالي (الإستقلالوي) الجزائري . في حين أنه كان بوسعنا أن نتوقع إن كان ولابد من الإستمرار في الإعتقاد بالخطاب القومي الإرثوذكسي ، والمنظرون للسياسة البربرية لـ فرنسا " بروز " نزعة بربرية موالية لفرنسا وإندماجية". إنني أرى هنا ، في ما يخصني تأكيدا إضافيا - إن كان ولابد من تأكيد إضافي آخر - على هشاشة الطروحات حول " سياسة بربرية لفرنسا " . لقد كان المتمازغون ، قبل كل شيء وطنيون جزائريون راديكاليون اختاروا الإستقلال في فترة كان فيها التيار العربي الإسلامي بعيدا ، بكل مكوناته، عن الوضع موضع سؤال للسيادة السياسية الفرنسية ! في الواقع ، إننا نحرم أنفسنا من كل فهم للوقائع إذا لم نأخذ في الحسبان الطبيعة الخاصة جدا للنخب القبائلية المثقفة . فخلافا للمعطيات التي تنطبق على باقي الجزائر نلاحظ أن النخب القبائلية المثقفة ذات أصل قروي متواضع ، بل وفي الغالب فقير جدا دأبت على الإحتفاظ بالروابط التي تشدها الى العالم القروي والهجرة العمالية بفرنسا التي ظلت في انسجام كامل معها . وهي تختلف في هذا وبعمق عن النخب المثقفة العربوفونية التي كانت حينها، وفي معظمها تنحدر من قيود آليات قديمة وجديدة (مرتبطة بالإستعمار) وبالبرواجزية التقليدية الحضرية ، والتي يمثل "الإصلاحيون المسلمون (العلماء) تجسيدا كاملا لها . إن هذا الإرتباط المباشر بالمجتمع القروي ومشاكله (بؤس ، هجرة...) هو الذي جعل باكرا من جزء من النخب القبائلية

مناضلين وطنيين راديكاليين وثائرين بسبب الحيف الإجتماعي سيجعل منهم ركائزا لما سماه (حربي) " الشعبوية الثورية" .

بعد " أزمة ١٩٤٩" لم يظهر ، حتى الإستقلال ، أي تعبير سياسي عن التيار الأمازيغي . فلقد أنشأت ، فعلا ، جمعية "تبيويزي" ن- ثمازيغت" لسنة ١٩٥٤ بباريز من طرف جماعة من " الأمازيغيين الوطنيين" لكن بدا موضوعها وكأنه ثقافي فحسب ، أضف الى ذلك أن الحرب التي أندلعت أبعدت ، بسرعة كل محاولة تجميع خارجية في الميدان القومي . لكن يعلق الأمر هنا ، بحالة تمثل قوسان ، وليس بإختفاء كامل للناس والأفكار كان هنالك ، علي أي عدد من الأغاني ذات الإستلهام " الأمازيغي الوطني" لازالت ذات وقع تم إنتاجها طوال حرب التحرير (وبالأخص من طرف المغني القبائلي الفدائي في نفس الوقت : فريد علي (أنظر ابن ابراهيم ١٩٨٢ ، -٤-٢٤٣ II أو ٢١٥-٢١٦) .

عرب/قبائليون داخل جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني (١٩٥٤-١٩٦٢)

نعرف ، من الآن فصاعدا ، واعتمادا على معطيات دقيقة بوجود خط خلاف - أهم - وطوال حرب التحرير الوطني ، بين "عرب" " وقبائل" في المستويات القيادية لجبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني . فلقد تم تأكيد المعلومات المستقاة من الجرائد المعتبرة لفترة طويلة كمعلومات مشبوهة والتي كانت تروج حول هذا الموضوع منذ الإستقلال ، أقول تم تأكيد هذه المعلومات ، وعلى نطاق واسع ، من خلال شهادات وأعمال القيادين القدامى لجبهة التحرير الوطني (وبالأخص من طرف إصدارات محمد حربي) .

إن تصريحات رئيس مصالح الإستعلامات المصرية لذلك الوقت (ديب ، ١٩٨٥) والذي كان مكلفا ، بوجه خاص ، من طرف عبد الناصر

بـ "تتبع" أطوار الثورة الجزائرية لجد منيرة في هذا الإتجاه ؛ إذ أنها تشهد بأن إحدى الهموم الهاجسية للمسؤولين العرب ، في ــــ حرب التحرير ، تتمثل في تهميش الزعماء السياسين القبائليين . إذ أنه في نظرهم يشتبه في " النزعة البربرية" لهؤلاء . كما أن " ولاءهم العربي" غير مضمون .

إن الإبادة الجسدية لـ عبان رمضان ثم السيرورة البطيئة لتطويق وتهميش بلقاسم ، ولربما حتى موت عميروش تندرج كلها في هذا السياق التنافسي : "عرب / قبائليون" فمن وراء خلافاتهم ونزاعاتهم حول طموحات شخصية كان الزعماء العرب الرئيسيون (بن بلة ، بو يوسف ، بو طوبال ، بومديان ، بو تفليقة) يلتقون ، بلااستثناء ، على ضرورة كسر الهيمنة القبائلية على جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني . ولقد صرح ثلاثون سنة بعد الأحداث الرئيس السابق احمد بن بلة بكلام يقول فيه ، أنه لازال يعتبر مؤتمر سومام (١٩٥٦) وكذا نشاط عبان رمضان - وبالأخص علمانيته "-" ملطخان بنزعة بربرية تدير بظهرها للإسلام " وكان يوضح ، في سياق هذا الكلام ، إحدى المبررات التي حملت أقرانه وخصومه السياسيين داخل جبهة التحرير الوطني على تحضير الإبادة الجسدية لعبان رمضان .

وهذا ليس لأن رمضان (أو حتى كريم) كانا "متمازغين " فهذا شيء مؤكد ؛ لكن مجرد كون الأول قبائليا (نضيف الى ذلك أنه ذو تكوين فرنسي) يجعل تفوقه داخل جبهة التحرير الوطني أمرا غير للتسامح وخطيراً، مستقبلاً، على عروبة وإسلام الهوية الوطنية المثبتة .

يبين تاريخ الوطنية الجزائرية ، بوضوح أنه ومهما كان انشدادهم الى جهتهم ، بل وشعورهم بالتميز إلا أن المسؤولين السياسيين القبائليين كانوا في غالبيتهم دون وعي فعلي بالهوية الأمازيغية (بل

ولقد ناهضوه بعنف أحيانا كما هو شأن كريم بلقاسم) . لكن أثر هذه النزاعات على الرأي العام القبائلي وأثر هذه الحقبة الطويلة والخفية من صراع اليد الحديدية داخل الحركة الوطنية (الذي بدأ بالتأكيد مع النزاع ايماش # معالي) ليسا دون أهمية . إن يقوي في آن واحد ، الشعور بالإعتزاز الإثنوسياسي للقبائليين إذ أن منطقتهم أنجبت أعدادا مهمة ، لا علاقة لها بوزنهم الديمغرافي ، من كبار الزعماء السياسيين والعسكريين لجبهة التحرير الوطني وحيث التحرير الوطني (عبان ، عميروش ، كريم بلقاسم ، آيت احماد) كما قوى ، بشكل متأخر، إحساسا بحرمان (سياسي) وإقصاء ، بل وقمع يتعرضون له - كأقلية غير عربية.

إنه ، من الصعب جدا ، بطبيعة الحال ، في مجتمع تختزل فيه حريات التعبير والرأي الى حدودها الدنيا ، موضعة هذا النوع من المشاعر والتي لم يجرؤ إلا القليل من المتنافسين على الإضطلاع بها في واضحة النهار ، وبالأخص على مستوى الكتابة . لكن لاشك ، في نظري ، أن الأمر يتعلق هنا بموضوعات ذات مفعولات قوية مهدت لوعي بالهوية ، وتسمح بفهم انتشاره الراهن حتى طال مجموع النسيج الإجتماعي القبائلي .

الجزائر المستقلة : من النضج الى التعبير المفتوح

شرعت ، وبسرعة بعد ١٩٦٢ ، سياسة التعريب المدرجة في برامج الوطنية الجزائرية منذ انبثاقها ، في التجسد في واقع محدد . عمل رمزي على أعلى مستوى (حتى ولم لم تكن له أية دلالة فعلية) ، وزارة التربية الوطنية يحذف في اكتوبر ١٩٦٢ كرسي الأمازيغية بجامعة الجزائر ، رغم طلب الإحتفاظ به والخدمات العاملة التي تقدم بها مولود معمري لمسؤول التربية الوطنية آنذاك (القبائلي محمدي سعيد)

هكذا كانت البداية .

وبالرغم من الطابع الكتوم والغامض لحزب القوى الإشتراكية لآيت احماد تجاه المسألة الأمازيغية فإن الإنتفاضة المسلحة لـ ١٩٦٣ بالقبائل لم تكن على الأرجح . ممكنة الحصول لولا اتكاؤها على منطقة ترى سلفا على أنها أقلية معتدى عليها ومجردة (سياسيا) من انتصار (الإستقلال) الذي أعتقدت أنها فاعل أساسي في تحققه.

أكيد . أن هنالك تشابك معقد لأسباب تتداخل فيها تنافسات الأشخاص والتكتلات والطموحات المتعارضة والصراعات الفعلية بالمشارع السياسية . لكن هنالك أيضا حساسيات شعبية وتيارات رأي جد واضحة منذ ذلك الحين .

إن جبهة القوى الإشتراكية ليست حركة متمازغة . لكنها تنامت في ميدان كان فيه الشعور بالتميز قويا سواء لدى الساكنة أو لدى النخب السياسية ولم تكن الجبهة ممكنة الا بوجود هذا الشعور الذي عملت على تقويته بعد ذلك. إلا أنه لم يكن لها أبدا نشاط سياسي أو ايديولوجي إرادي على أرض الهوية . هكذا سنرى في تمرد آيت احماد مجموعة من المتمازغين من بينهم عدد من "الأمازيغيين الوطنيين" القدامى لسنة ١٩٤٩ (بلعيد آيت مدري . موحاند أمقران هداش..) المواقف المتطرفة لرجال كـ بسعود موحاند أعراب (وهو أحد النشطين الرئيسيين للأكاديمية البربرية في ما بعد) . لن تتوضح ولن تفهم في علاقتها مع جبهة القوى الاشتراكية. إن موحاند أعراب هو من بين هؤلاء "المتمازغين" الأصلاء الذين انخرطوا في الجبهة . وكانوا على وعي تام . بعد الفشل . بضرورة التكفل بخط أمازيغي مستقل وواضح .

إلا أن صراعات جهاز ١٩٤٩ أو التورط الجزئي في المعركة المسلحة

في ١٩٦٣ – ١٩٦٥ شكلا ما قبل تاريخ بعيد . من هذه الفترة . حصل فيه تعبير عن تيار أمازيغي . أما المرحلة التالية فقد أدخلت قطيعة عميقة بما فيه الكفاية .

إبتداء من ١٩٦٥ – ١٩٦٦ ظهرت شبيبة تلاميذية وطلابية بالقبائل والجزائر العاصمة وبالمهجر (باريز) وأقطاب تجمع أنخرطت في عمل ثقافي وبيداغوجي أمازيغي مستقل . كما بدأت تظهر . تدريجيا . حملات تعليم للأمازيغية وإصدارات وأعمال تنشيط ثقافي بلغت فعالية واقعية بأوساط السبعينات .

لعبت . طوال مرحلة الوضع حيز العمل والتطبيق هذه . إنتاج شخصيات معينة دورا مصيريا : مولود معمري. بإصداراته الأمازيغية ودروسه بجامعة الجزائر العاصمة (من ١٩٦٥-١٩٧٢) . طاووس عمروش. ... وتكثفت هذه النضالية الأمازيغية التي لم تكن مهيكلة حول بعض الأماكن المناسبة : ثانوية تيزي ووزو . بعض ثانويات الجزائر العاصمة . كلية الآداب بالجزائر العاصمة الحي الجامعي لابي اكنون الذي كانت لجنة التيسيرية، ولمدة طويلة . في أيدي "المتمازغين" (سوف يكون عدد كبير منهم . بعد ذلك . من بين منشطي حركة ١٩٨٠).

إنطلاقا من ١٩٧٤ . ستعطي الأغنية القبائلية الجديدة – مع صعود نجم ايدير سندا جماهيري لموضوعة الهوية وستقوي المصداقية الوطنية والعالمية للثقافة الأمازيغية .

حتى ١٩٨٠ . يمكننا القول أن هناك ضبابية تلف العمل الأمازيغي وكانت ذات طابع مزدوج ؛ يمكننا أن نتبين فيها، مع كل ما يمكن أن يكون لهذا النمط من الإزدواجية من جوانب اختزالية وكاريكاتورية . فورة " أمازيغية نشطة" و – تيار "أمازيغي جامعي"

هنالك بطبيعة الحال روابط عديدة تصل بين هذين القطبين ورواج للأفكار والأشخاص كان دائما مكثفا . لكن من السهولة تبيان أنهما متمايزان بجلاء ، في سياق عام .

النزعة الأمازيغية النشطة" : استقطاب شعبي

يتمركز هذا التيار حول الأكاديمية الأمازيغية (أكراو إمازيغن) التي أسست سنة ١٩٦٧ بباريز . لايتعلق الأمر هنا ، بالتأكيد ، إلا بنقطة إنطلاق كرونولوجية وطوبوغرافية ملائمة . ففي الواقع ، لهذه الفورة تاريخ معقد وعاصف . فلقد انفصلت عدد من الشخصيات والمجموعات الفرعية عن هذا التيار لتشكيل أقطاب عضوية جديدة . إلا أن الإستلهام - وهو ما يهمنا هنا - يظل هو هو .

إن " النزعة الأمازيغية النشطة " راديكالية . وتستقطب أساسا في الوسط الشعبي . أما منشطوها الرئيسيون فكانوا في الغالب مناضلون سياسيون سابقون خطابها سياسي بشكل واضح ومطبوع بقوة ، بفكرة الجامعة الأمازيغية (Panberbere) أيضا بإرادوية كبيرة ومعاداة للعروبة بشكل لاذع وبما فيه الكفاية . أما رنة الخطاب فتتميز بتوجه قومي واضح أي " أمة أمازيغية" مقاومة للهيمنة العربية في حين أن التكوين العلمي الخاص لأفرادها في الأمازيغية فجد ضعيف على العموم .

تمكن هذا التيار في بداية السبعينات ، من الإنغراس في الوسط القبائلي المهاجر ، وبالأخص في المدار الباريزي . ضمت الأكاديمية الأمازيغية في أوج تأثيرها أكثر من ١٠٠٠ منتم - مناضل وكانت تنشر على نطاق واسع مجلتها في المهجر وفي القبائل وكذا في أوساط الشبيبة التلاميذية بوجه خاص .

انطلاقا من ١٩٧٦ . بدأ نشاط هذه الحساسية في التلاشي حتى أصبح غير ذي دلالة بعد ١٩٨٠ . فقد حصل تلغيم هذا النشاط بانشقاقات داخلية وتشتت الى عدة أقطاب عضوية متمايزة صغيرة آئلة باستمرار إلى أفول . لكن تأثيره كان ولا زال كبيرا في القبائل بطبيعة الحال . لكن أيضا على مستوى المجال الأمازيغوفوني بكامله وبالأخص بالمغرب . ذلك لأنه يتناسب مع إتجاه واقعي – ولو أنه مهيكل . بشكل ضعيف . متردد وعائم في المجتمعات الأمازيغية من أهم سماته الإثبات الراديكالي الشبه القومي للإنتساب الأمازيغي في مواجهة عروبة إلغائية .

وليس من الغريب في شيء . أن يكون هذا التيار قد بني الحروف الأبجدية الأمازيغية لتدوين اللغة في أفق ترويجها . يتعلق الأمر بعمله على تعديل تيفيناغ الطوارقية حتى "تتكيف" مع القبائلية . وبإمكاننا أن ننتقد هذا التعديل إنتقادات شديدة في إستقلال عن كل نقد علمي داخلي . لكن يجب الإقرار بأن هذا الإحياء للحرف الأمازيغي القديم الذي خرج من دائرة الاستعمال الفعلي منذ قرون عند أمازيغيي الشمال كان له أثر واقعي . فإذا أعتبرنا ظهور خارج كل إطار مؤسساتي . وعلى الرغم من القمع المقصود الذي تعرضه . بالجزائر على وجه الخصوص . وشيوعه بواسطة وسائل متواضعه . فإننا يمكن أن نحكم بأن الكتابة الأمازيغية القديمة قد شاعت فعلا . على نطاق واسع في سير معدودة بأوساط الشبيبة القبائلية ؛ بل تجاوزت للقبائل لتظهر بالأخص. في المغرب حيث ساهمت المرحومة "أمازيغ" وهي مجلة (لأحرضان)في التعريف به .

التيار "الجامعي المتمازغ"

تجسد هذا التيار من خلال عمل ونتاج (متمازغي) لكل من مولود

معمري (وهو نتاج صادر بفرنسا عن دار ماسبيرو) وجماعة الدراسات الأمازيغية بجامعة باريز III التي شرعت في العمل ابتداء من ١٩٧٣ ثم تعاونية إمديازن انطلاقا من ١٩٧٨ . إن هذا التيار يغلب عليه الطابع "الثقافي" ومعتدل في لهجته وجامعي أكثر من خلال إستقطابه وأماكنه . تتسم أعماله بطابع منهجي ، بما فيه الكفاية وتستند على أسس علمية متينة نسبياً. أما المحاور الرئيسية التي كانت تدور حولها نشاطاته فهي : تدريس اللغة ، التخطيط اللغوي (تدشين دروس في اللغة ، أدب وحضارة أمازيغيتان، نيولوجيا) ثم محور النشر المطبوع (دوريات ، أدوات ديداكتيكية وأدب حديث) .

أما في مجال الكتابة ، فقد مكنت عدة مطبوعات ودروس منظمة بباريز والجزائر العاصمة (حتى ١٩٧٢) من تثبيت الخط اللاتيني لكتابة اللغة القبائلية .

من العمل الثقافي الى المطالبة الأمازيغية

مع بداية السبعينات ، سيدخل عامل آخر المسرح السياسي الجزائري وستكون تبعاته مصيرية : إنه عامل القمع. سوف تتوتر الوضعية بسرعة ابتداء من ١٩٧٢ و ١٩٧٣ وسوف يتدهور المناخ مع تهديدات وإجراءات فعلية (كتقليص الساعات الخاصة بالأمازيغية ، الإدخال المنتظم لبرامج بالعربية...) والتي ستضايق قناة البث بالإذاعة القبائلية. مع الدخول الجامعي لسنة ١٩٧٣ سوف تحذف الدروس التي كان مولود معمري يقوم بها في كلية الآداب بالجزائر العاصمة (لم يكن يتم التعامل معها في الواقع ، بشكل متساهل منذ اكتوبر ١٩٦٥) . هذا الحذف واكبه تطبيق عملية اصلاح التعليم العالي .

صاحب كل هذا وقوع أحداث عنيفة أحيانا (بالعرباء نايت إراتن "حفل بمناسبة بطولة الجزائر لكرة القدم) . وهي أحداث كانت شاهدة

على انتشار الطموح الأمازيغي في صفوف الشبيبة القبائلية . وتجلى بشكل أكثر وضوحا) إبان مناقشة الميثاق الوطني (الربيع . ١٩٧٦) سواء بالقبائل أو بالجزائر العاصمة .

انطلقت الإعتقالات من ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وأدت في الغالب الى أحكام قاسية (يناير . ١٩٧٦ . صيف ١٩٧٦) والتي طالت أحيانا أناسا في عنفوان شبابهم بسبب إتصالات بسيطة مزعومة مع الأكاديمية الأمازيغية . وكان من شأن هذه الأحكام أن جذرت . بسرعة . الوضعية وصعدت من تسييس المطالبة . من هنا فقط . يمكننا فهم "إعادة الروح" إلى جبهة القوى الإشتراكية لآيت احماد انطلاقا من ١٩٧٦ - ١٩٨٧ ودمج المسألة اللغوية في صيغة برنامجها سنة ١٩٧٩ . فأمام تطور القمع وانغلاق الحكم . اقتنع المناضلون الثقافيون الأكثر تصميما بأن عملهم في حاجة . فعلاً الى إطار عضوي وانه يتعين أن يندرج ضمن منظور سياسي دقيق . والتحقوا - بعد أن جسوا نبض حزب "الثورة الإشتراكية" الذي كان آنذاك يحابي جماعة المثقفين المحرجين - بجبهة القوى الاشتراكية التي كانت تاريخيا وسوسيولوجيا، الحزب الأقرب منهم والأكثر إصغاء لتطلعاتهم .

لكن هذه الهجرة لعدد معين من المناضلين الثقافين الى الجبهة ليست ذا دلالة واقعية وبشكل عام وعلى المدى الطويل . من جهة أولى . لأن هذه الحركة لم تكن أبدا تهم إلا جزءا من مناضلي الثقافة الأمازيغية . ولم تتمكن الجبهة . في أية لحظة . من مراقبة مجموع الفورة الأمازيغية التي تتحرك أساسا من أجل الهوية . حيث تلعب الثقافة الدور الأكبر. إذ أن وزن الشخصيات المستقلة وزن حاسم . ولا يمكن اختزالها ودمجها في أطر تنظيمية لحزب . ومن جهة أخرى، لأنهم التحقوا كمناضلين ثقافيين في بحث عن سند تنظيمي حزبي . فإنهم أثروا بذلك على توازناته الداخلية وتوجهاته. إلا أن المبادرة . تعود في كل

جوانب هذا الإلتقاء ، الى مناضلي الثقافة . لقد أكد التطور اللاحق ذلك ، على أية حال. طالما أن الأغلبية الساحقة من المناضلين الثقافيين الذين التحقوا بالجبهة غادروها ، تدريجيا انطلاقا من ١٩٨٢.

ما حصل في الحقبة الراهنة ، وعلى مستوى الواقع (انطلاقا من ١٩٦٥) هو تسييس فعلي لكن من طبيعة أخرى تماما . إنه في نفس الوقت تسييس عميق وقليل التنظيم . نلاحظ أن رؤية أكثر سياسية لمشكلات اللغة والثقافة تنتشر في جسد الفورة الثقافية الأمازيغية وأصبحنا مع هذا الوضع ، أبعد ما نكون عن المعلمين "الثقافيويين" للنصف الأول من القرن العشرين ؛ وتنزع مسألة الهوية الأمازيغية الى الاندماج في تأمل شمولي في المجتمع والدولة . إن التيار الأمازيغي يرسم - بوضوح كاف - مشروع مجتمع علماني وديموقراطي ، تعددي في المجالين اللغوي والثقافي كل هذا في غياب تنظيم وبرنامج سياسيين . لاوجود لـ "حزب أمازيغي" بالجزائر .

إن لقاء جبهة القوى الإشتراكية / الفورة الثقافية الأمازيغية " كان دائما جزئيا وظرفيا . سيكون من قبيل الخطأ، لامحالة ، تضخيم هذا الجانب الحزبي المحدود جدا لسيرورة التسيس وتجاهل ماهو أساسي ، وأعني به تلك الحركة البطيئة التي جعلت من الفورة الأمازيغية تياراً عاماً . سوف أضيفه - مع بقائي وفياً لتقاليد التسمية في التقليد السياسي الجزائري كـ "أمازيغي - ديمقراطي"

القواعد الإجتماعية : التوسيع

مع الإستقلال ، حدث تغير عميق آخر ، إذ أن " الحساسية الأمازيغية ستمتد وستمس ، على أوسع نطاق ، الشبيبة والمهجر . وقد أكدت التطورات منذ ١٩٨٠ بالقبائل أنها كسبت سندا شعبيا جديا . سوف يمكن الإستقلال ، بتجسيده لخيارات قومية واضحة (عروبة

- اسلام) . "الحساسية الأمازيغية" من التعبير عن نفسها بانفتاح أكثر وبمشروعيته أكبر ؛ وسيصبح ما كان في السابق مرجعية لنخبة محدودة (ثقافية أو سياسية) . وفي بضع سنوات . ظاهرة سياسية على مستوى متقدم ستطبع كل النسيج المجتمعي القبائلي . إنه . على أي. مؤشر بديهي على أن التطلع الأمازيغي كان فاعلا في المجتمع القبائلي منذ مدة طويلة جدا وأنه كان فقط مقنعا من طرف حركات سوسيو - تاريخية أخرى أكثر أهمية ومخفيا من طرف الايديولوجية القومية الصاعدة . وإن مقارنة مع وضعية ١٩٤٨ - ٤٩ - ولو أن السياق مختلف جذريا - منيرة بما فيه الكفاية في هذا الإتجاه - إن إحدى الأسباب المباشرة للإخفاق حينها - والذي وضحه (كارليي/ ١٩٨٦) تمثلت في إنعزال "المتمازغين" الذين لم يتوصلوا من خلال المثلث الحاسم "القبائل" الجزائر العاصمة - المهجر " إلا الى استمالة القطب الأخير (المهجر) لفائدة طروحاتهم - أما حركة إنتصار الحريات الديمقراطية فقد تمكنت . بسهولة ظاهرة من إستعادة زمام الأمور وذلك بإستمرارها في مراقبة الجزائر العاصمة والإستفادة من الإنخراط أو من تناقضات القبائل .

في الوضع الحالي "الحساسية الأمازيغية " مهيمنة بالقبائل منغرسة جدا بالمهجر وجد حاضرة في أوساط "الدياسبورا" القبائلية بالجزائر العاصمة ومدن أخرى بالبلاد . ولقد تمكن التيار الأمازيغي من خلال سنة (من مارس ١٩٨٠ الى ماي ١٩٨١) من التعبير عن نفسه بشكل مفتوح بالجزائر العاصمة ذاتها . ووجدها آلة القمع أجبرته (انطلاقا من ١٩ ماي ١٩٨١) على الظهور بـ " مظهر متدني " وأكثر تسترا .

إن هذه الصيرورة الموازية للعمل الثقافي والتسييس طوال الحقبة الممتدة من ١٩٦٥ - ١٩٨٠ هي التي جعلت. فضلا عن حيثيات

أخرى مواتية (تنامي مدينة تيزي ووزو ، إحداث المركز الجامعي إضطرابات السلطة السياسية) ، أقول هي التي جعلت "الربيع الأمازيغي " ممكنا سنة ١٩٨٠ .

المنعطف : ١٩٨٠

مثل " الربيع الأمازيغي " سنة ١٩٨٠ إحدى الأحداث السياسية الكبرى في تاريخ الجزائر المستقلة . إن المسألة الأمازيغية ، التي كان نصيبها هو النفي المسترسل من طرف الخطاب الرسمي والتجاهل ، لمدة طويلة، أو على الأقل الإستصغار والفلكلرة من طرف النظر العلمي " طرحت بقوة على مسرح الأحداث بفضل أحداث الربيع القبائلي سنة ١٩٨٠ لقد أظهرت حدة الحركات الإجتماعية والمواجهات الحاصلة بالقبائل والجزائر العاصمة ، من مارس ٨٠ الى ماي ٨١ ، أن المطالبة الأمازيغية ليست من فعل مثقفين معزولين "حثالات الإستعمار" لكن ، وبالفعل ، تطلعا منتشرا على نطاق واسع ، في أوساط الساكنة الأمازيغوفونية الجزائرية .

كان " الربيع الأمازيغي" مؤشرا على يقظة الوعي وبروز تفكير وتعبير مستقلين في بلد كان همه الدائم هو الحفاظ ، بكل ثمن ، على واجهة الإجماع . بلد أنتصب فيه الإحتكار السياسي والايديلوجي والثقافي ، ولمدة طويلة ، في شكل مبدأ دستوري . ففي المجال اللغوي ، ينعدم أي بلد لبس أو هامش للتحرك ، إذ أن كل الدساتير الجزائرية تعلن منذ الإستقلال :

" العربية هي اللغة الوطنية والرسمية للبلد "

إن إرادة التوحيد اللغوي والثقافي عملية تكفلت بها ، وبصراحة ، كل النصوص الأساسية للدولة الجزائرية . بل إن الأشياء هي أكثر جلاء

في ديباجات الدساتير التي هي المواثيق الوطنية على اختلافها (انظر الفصل ٨) .

ظاهرة عميقة

من وراء التقلبات الظرفية ، يمكن القول بأن المطالبة الأمازيغية عميقة ودائمة وغير قابلة للتجزوء . إن منع محاضرة لمولود معمري حول الشعر القبائلي القديم (١٠ مارس ١٩٨٠) لم يكن إلا الشرارة التي أوقدت النار في الهشيم، إذ أن الوضعية كانت على حافة الإنفجار بالقبائل ، منذ عدة سنوات ، وعلى الأرجح ، منذ مطلع السبعينات.

أكيد أن التمركز القوي للمثقفين بتيزي ووزو الناجم عن إحداث مركز جامعي بها سنة ١٩٧٩ سهل غليان وشيوع حركة الإحتجاج . لكن ، وحتى إن لعبت جامعة تيزي ووزو ، على إمتداد أسابيع ، دور المحرك والمركز الحساس للإحتجاج ، فإن هذا الأخير ليست له أي خصوصية فكرية (مرتبطة بمفكرين) . فالأغلبية الكبيرة من الساكنة القبائلية شعرت بأنها كانت معنية بالمطالبة وشاركت فيها بالقليل أو بالكثير ، إذ تلاحقت وتواصلت المظاهرات التي كانت ذات حدة غير معهودة بالجزائر المستقلة لعدة أسابيع ، وكذلك بتيزي ووزو والمراكز الحضرية الصغيرة كـ(ميشلي ، الفورناسيونال و دراع الميزان و بوغني و أزازكا و أميزو و سيدي عايش و اكبو ...) إضافة الى القرى ومجموع القبائل "كبرى" و"صغرى" . خلافا لما كتبه عدد من الملاحظين الفرنسيين الضالعين .

إن المظاهرات وقعت في كل الدوائر ، بل كانت في الغالب أشد عنفا في القبائل الصغرى (بجاية و واد سومان). إن آلة القمع لم تراعي أية منطقة .

بل إن بجاية و بويرة اللتان كان ينظر اليهما على أنهما أقل "أمازيغية" وأقل تعرضتا بدورهما لقمع أشد قسوة وأكثر كثافة من تيزي ووزو التي تمت مراعاتها نسبيا ، أو على أية حال ، تم التعامل معها بتحفظات خاصة منذ ١٩٨٠ .

وبحكم انتشارها الجغرافي الواسع ، أصبحت المطالبة أيضا دائمة وذات دلالة بخصوص مستقبل البلد نظرا لتبنيها من طرف الشبيبة . خلافا لما كانت الدعاية الرسمية تحاول دائما الإيهام به . فلقد تبين أن المرجعية الأمازيغية ليست عملا لثلة مهمشين "مشتاقون هجينون للاستعمار الفرنسي " ، بل إن الجمهور الحامل لهذه المرجعية كان لأفراده دائما أقل من ٢٥ سنة . تبين هذا سنة ١٩٨٠ وفي كل مسيرات الشوارع منذ ذلك الحدث ، وتم التحقق من هذا أيضا إبان مظاهرات نوفمبر ١٩٨٥ . وما يقرب من المائة من الإتهامات بـ " الاخلال بالنظام العام " التي نطقت بها المحاكم بالقبائل استهدفت تلاميذ ثانويات . والحالة أن هذا الجيل كون بالكامل ، ضمن المنظومة التربوية للجزائر المستقلة ، ولم يسبق له أن عرف فرنسا بشكل مباشر ، فإذا قبلنا بأن "المتزعمين" هم ، فعلا مثقفون مفرنسون جذابون، متشوقون لماض منته ، فكيف يمكن تفسير أن شبيبة المنطقة التي مرت من الرحى المدرسية الثقافية والايديولوجية الرسمية تتبع هؤلاء المضادين للثورة في مطالبتهم بزمن آخر؟.

في الواقع إن فشل ، تراجع السياسة الثقافية والمدرسية الجزائرية هو تراجع قاتل . فالشبيبة القبائلية تتعرض لهذا الطحن داخل الرحى لكنها ترفضه . إن أكثر من عقدين من المراقبة المطلقة للأخبار ومن سياسة التعريب لم ينجحا في استئصال "بقايا " النزعة الأمازيغية بالقبائل . العكس تماما هو الذي يبدو صحيحا ؛ فقد قاما بتقويتها وساهمتا في إعطائها حدة لم تكن لها أبدا قبل ١٩٦٢ ! فالفكرة

"الأمازيغية طبعت مجموع النسيج الإجتماعي للمنطقة بينما كان الوسط المؤسساتي مناهضا لها بشكل جذري .

هاهي ذي المعاينة والدرس الذي سيفعل الاستراتجيون الرسميون حسنا بتأملهم له .

إن الحركة الأمازيغية غير قابلة أيضا للإختزال ، لأنه من وراء الدور الظرفي الذي تمكنت بعض التنظيمات السياسية السرية من القيام به في أحداث ١٩٨٠ (وبالأخص جبهة القوى الإشتراكية وبعض " المجموعات الصغيرة المتياسرة") ؛ فإن المطالبة تجاوزت الأجهزة ، على أي الضعيفة منها ودون إنغراس إجتماعي فعلي . في الجزائر ، لم تتمكن الأحزاب السياسة المعارضة (السرية كلها حتى نهاية ١٩٨٨) من كسب قاعدة شعبية جادة ولا من تزعم نشاط دائم ما في مواجة السياسة الحكومية - السرية ، إنعدام الفعالية ، غياب توجهات واقعية وقمع (دوري أو دائم) كانت كلها من نصيب القوى السياسية الغير رسمية منذ الإستقلال لم تتمكن أية قوة من هذه القوى من فرض نفسها بل ولا من الصمود ، بشكل فعال ، أمام التسرب البوليس الشبه الاتوماتيكي إليها .

لقد فهمت الحركة الثقافية الأمازيغية تقريبا أنه ، يتعين عليها تفادي ، وبأي ثمن ، فخ السرية والتنظيم الحزبي ، بمخاطرتهم منذ ١٩٨٠ بالتعبير العلني ؛ وفي كل الملابسات ، عن تطلعاتهم ومواقفهم وتحليلاتهم ؛ شكل مناضلو الحركة الأمازيغية منبعا لثورة حقيقية ، ذلك أنهم خلصوا الكلام العلني من ربقته ووضعوا حدا لجدار الصمت السميك عن الممارسات القمعية بالجزائر . أدى هذا الموقف الى بروز جيل من المناضلين الشجعان المستعدين لمواجة القمع وتحمل تبعات آرائهم حتى النهاية - لايكفي اعتقال الأفراد " المتزعمون" وحل شبكات هي

في الغالب خيالية أو مخترقة منذ البداية من طرف البوليس السري للقضاء على المطالبة الأمازيغية . إذ أنها ستولد وتبرز مجددا في كل مكان . هذا الشكل من العمل المفتوح وهذه المعركة بأيد عزلاء فجرت قفل الخوف والحظر الذاتي . وأصبح الحضور الدائم الأسطوري لمصالح الأمن من كل طينة ، الذي طبع ، بعمق ، العهد البومدياني أقل تخويفا .

صحيح أنه في ١٩٨٠ ، كان نظام الحكم الجزائري في أوج مرحلة انتقالية ؛ إذ أن سلطة الشاذلي بن جديد كانت أبعد ما تكون عن الحزم والصرامة ، واختفاء بومديان هز بجد أركان الطبقة السياسية وتوازناتها الداخلية . وقد ترجم هذا من خلال تردد ما للسلطات التي كانت بين أخذ ورد بخصوص الطريقة التي ستتبعها في مواجهة احتجاج غير متوقع وغير مسبوق لجهة حدته وطبيعته والأشكال التي اتخذها . طوال ثلاثة أشهر ، تأرجح الحكم بين الحزم (الذي بلغ أوجه في ٢٠ أبريل مع الإنقضاض على جامعة تيزي ووزو) والتهدئة (وذلك بإطلاق سراح ٢٤ "متزعم" الذين سبق أن أحيلوا على مجلس أمن الدولة) . أختار في النهاية أخذ زمام الأمور التي كادت ، في البداية أن تفلت بالكامل منه ، وذلك في رفق . لكن هذه الاخفاقات سمحت للحركة بإستعراض واقع انغراسها من خلال تنظيم عدة حركات شعبية (إضرابان شعبيان) جملة من المظاهرات، مواجهات عنيفة جدا انطلاقا من ٢٠ ابريل) . فلأول مرة في تاريخ الجزائر المستقلة ، تطال حركة اجتماعية منطقة بكاملها وتتمكن من معارضة الحكم لعدة أسابيع .

هكذا نجح مناضلون ثقافيون شباب نسبياً والذين كان تسيسهم في ذلك الوقت ، ضعيفا بشكل عام وفقيا في القيام بما لم يستطع أي حزب سياسي انجازه حتى ذلك الوقت ؛ أعني بذلك مناهضة سلطة

الدولة ، بشكل مفتوح ودائم وحمل الدولة على الليونة والبرهنة ، رغم كل شيء ، على اعتدال نسبي في ممارستها للقمع.

١٩٨٠ : لقاء بين المثقفين والساكنة

كان " الربيع الأمازيغي " لسنة ١٩٨٠ ممكنا نظرا لوجود مجموعة من الشروط المواتية ، نذكر منها ، ١٥ سنة تقريبا من العمل الثقافي المسبق والصموت وبداية تسييس المناضلين الأكثر تصميما والبناء التدريجي تـ " نسيج متمازغ" بموازة كل هذا شهدت مدينة تيزي ووزو تطورا سريعا آخرجها من غفوتها التي كانت تعيش فيها عندما كانت اقل ولاية لتصبح ، مع هذا التطور ،ميتروبولتن جهويا صغيرا . أما احداث مركز جامعي في ١٩٧٩ بهذة المدينة فقد كان بمثابة العنصر المفجر . لن نقول أبدا ، أن حركات الاحتجاج في ١٩٨٠ ليست أساسا من فعل مثقفين وجامعيين . لكن من المؤكد أن وجود الجامعة أعطى لعملية الاحتجاج مركزا ، والتي لم تكن لتبلغ تلك الحدة في غيابه . ان الجامعة كانت بمثابة قطب تنسيق لحركة جد واسعة ومتنوعة ومهيكلة بشكل ضعيف . انها في واقع الامر ، عوضت الضعف التنظيمي للحركة .

ولم يكون من قبيل الصدفة ، على اى ، ان عملت الحكومة الجزائرية ومنذ ١٩٨٠ ، عليه – لدور المركز الجامعي بتيزي ووزؤ اذا ان كل مشاريع الانماء التي كانت منتظرة منه اجلت بشكل منتظم ولم التضييق على العاملين به بشكل فيه من الغبن الكثير ، وتم الاجهاز على قطاعات بكاملها . وكان الامل المنشوذ من كل هذا وبصراحة ، هو تقزيم هذا المركز لكي لا يتجاوز مجموعة من المدارس ومعاهد التكوين العالي المتخصص بطاقم محدود قابل من ثم للمراقبة بسهولة.

لقد كشف ربيع ١٩٨٠ ، بوجه خاص عن لقاء حاصل بين

المثقفين المناضلين وجمهور الساكنة القبائلية وعن حقيقة اخرى مفادها أن عمل المجموعات التي تكونت بالجزائر العاصمة وبالمهجر انطلاقا من ١٩٦٥ يتجاوب فعلا مع تطلع شعبي واقعي وان عمل هذه المجموعات كان له بعد ذلك اثر عميق على المجتمع القبائلي. لقد سمح هذا اللقاء بتعبئة غير مسبوقة بالقبائل و (بالجزائر) . تمكن . بفضلها؟ التيار الامازيغي ومن التعبير عن نفسه على نطاق واسع وبشكل علني سواء بالقبائل أو بالجزائر العاصمة لمدة تربو عن السنة (١٠ مارس ٨٠ الى ١٩ ماي ١٩٨١) .

١٩٨٠ : الهزة الدائمة

في اعقاب ربيع ١٩٨٠ يمكننا ضبط مرحلتين متمايزتين بما فيه الكفاية في عمل الحركة الامازيغية تطابقان وضعيت واستراتيجيات مختلفة . من مارس ١٩٨٠ الى شتنبر ١٩٨١ . ساد ما يمكن نعته بـ " الحقبة الساخنة " المطبوعة بحركية اكيدة وحوادث علنية مهمة كالمظاهرات التي تلاحقت بكل من القبائل والجزائر العاصمة . لقد وعى منشطو الحركة بسرعة بالاهمية القصوى التي تمثلها التعبئة الجماهيرية وتقبل الساكنة لموضوعات الهوية .

وبدت لهم ترددات الحكم وانطلاق نقاش حول الثقافة كملابسات مواتية عملوا على استغلالها بشكل افضل وذلك بتنظيم ضغط منهج على السلطات . كان أملهم هو الحصول على اشارة ملموسة الى التفتح) او على الاقل احداث اطار تدريس وبحث الامازيغية تيزي ووزو و الجزائر . وهو وعد صيغ على أى مرات عديدة وبشكل علني من طرف وزير التعليم العالي نفسه (أ . بريرحي) .

لكن سرعان ما حصل قمع منهجي من طرف الحكم مقاد باتقان سمح له بمواجهه هذه الستراتيجية .

ولقد اتضحت الوضعية اكثر بعد تبني اللجنة المركزية لجبهه التحرير الوطني في يونيه/ يوليوز ١٩٨١ لقرارات حول الثقافة في اعقاب " نقاش وطني حول المسألة الثقافية " انهاء بالضبط الطروحات الاشد تعنتا حول الهوية العربية الاسلامية للبلد هي التي ربحت الجولة .اما المواقف المتفتحة نسبا لبعض الشخصيات التي تعبر على الاقل عن امكانية حوار - ولو انها تبقى في العمق ابعد ما تكون عن مواقف المناضلين الامازيغيين - فلم ترجح الكفة في مواجهة الهجوم العروبي المضاد .ذلك لان التيارات العروبية والعربية الاسلامية كانت تمارس هيمنتها لسنين عديدة في كل الاجهزة الايديولوجية للدولة . وبالاخص في الاوساط الثقافية والتعليم داخل حزب جبهه التحرير الوطني .

فشلت اخر محاولة " للضغط من خلال "القاعدة " في ٢٦ شتنبر ١٩٨١ اذا أن النداء الى اضراب عام ومقاطعة المدارس - الذي كان بلا شك غير موات وفي غير وقته - والذي تمت الدعوة اليه من القبائل طبق بشكل ردئ من طرف الساكنة . واضح اذا ان الحركة الامازيغية لم تحصل على اى شيئ من السلطات وان خط هذه الاخيرة يتلخص في المحافظة على الوضع القائم بل وتصعيد سياسة التعريب . ولقد كان الدخول الجامعي ل ١٩٨١ جد موحي في هذا المنحنى . اذ حصل تعريب كامل لكل شعب العلوم الاجتماعية بالجامعة تم حصلت معاينة احتطان مثير ومتصاعد من طرف الخطاب الرسمي للموضوعات الاسلامية وتجلت ارادة السيطرة الايديولوجية وبالاخص على الأوساط الجامعية في كل وضوحها . حيال الضغط " المتمازغ " كان هنالك نزوع إلي معارضته بنار مغادة ذات تلوين إسلامي من طرف الجهاز الحاكم .

انطلاقاً من هذه الفترة ، شرعت الحركة الامازيغية في تنظيم نفسها لتحافظ علي الاستمرار, وانخرطت في عمل ينطلق من

عمق التكوين بذلك ولاشكل مطابقة لطبيعتها .حصل هذا . من خلال الاصدارات المنتظمة اللامشروعة لكن التي كان التعامل معها متسامحا كثيراً أو قليلاً . والتي كانت بمثابة المحرك لمناقشة أفكار وأخبار مستقل بالقبائل . بدأت كذلك في الظهور مجموعات عمل في المجالات لغوية وثقافية: التخطيط اللغوي (تهيئ تعابير تقنية) انتهي إلي إصدار مطبوعات متخصصة جد أصيلة . في بعض الأحيان كالقاموس الأمازيغي في الرياضيات . وكذا دروس تكوين باللغة الأمازيغية (الانتقال الي الكتاب) متخفية تنظم بشكل منتظم . لم يعد الهدف هو حمل الحكم علي تقديم تنازلات . ولكن أصبح الهدف اساساً هو بناء معطي واقعي غير قابل للمداورة ولا رجعة فيه . إي ثقافة أمازيغية مستقلة ومتجهة نحو مستقبل .وذلك من خلال عمل يومي منطلق من القاعدة .

ضمن هذا التوجه تم إطلاق . سنة ١٩٨٣ .سلسة ((دراسات ونقاشات)) لمجلة (تامسوت) التي كانت بمثابة نتاج وركيزة تأمل وتحاليل المثقفين الأمازيغيين بخصوص المسألة الثقافية . ومع ذلك فلم يحصل أن حدث تخلي عن العلاقة ب ((القاعدة)) والركيزة الشعبية بالقبائل . إذا كان دائمة الحضور من خلال تجمعات سلبية : حفلات راقصة وأنشطة مفتوحة بجامعة تيزي ووزو بوجه خاص . منذ ١٩٨٠ . يحصل التحقق كل سنة من واقع الصلة بالساكنة . من خلال تظاهرات بل وأحياناً أصطدمات عنيفة بين قوي الامن والشبيبة عبركل القبائل .

ففي فبراير ١٩٨٥ مثلاً أسفر اعتقال سبعة منشطين في الحركة . مباشرة عن رد فعل حيوي من طرف الساكنة بالمنطقة برمتها ((مظاهرات بتيزي ووزو . أزازكرا .بجاية ..)) . أنطلاقاً من ١ نوفمبر ١٩٨٥ قادت الاعتقالات في صفوف الجامعة الوطنية لحقوق الانسان

(المكونة أصلاً و المدعومة من طرف مناضلي الحركة الأمازيغية . إنظر حول هذه النقطة شاكر ١٩٨٧)) إلي مواجهة عنيفة أسفرت عما يقرب من ١٠٠ محاكمة بتهمة الإخلال بالامن العام والتي جرت في محاكم محلية .

منذ ١٩٨٠ يمكننا تقدير حصول علي الاقل ٣٠٠ محاكمة أدت إلي أحكام في السجن بتهمة ممارسة ((العمل المتمازغ)) بالقبائل و الجزائر ((مشاركة في مظاهرات توزيع " مناشير " القيام بدور تنشيط وتاطير المطالبة) . اما بخصوص حالات كالاستدعاءات للتحقيق الحراسة النظرية . اعتقالات عشوائية " تمديدية " استنطاقات سراحات مؤقتة طرد من المؤسسات المدرسية انتزاع جوازات السفر المنع من مغادرة التراب الوطني فهي تكاد لا تعد ولا تحصى . فقد أصبحت هذه " الامور" جزءا من النصيب اليومي من روتين كل مناضلي الثقافة الامازيغية .

بامكاننا من خلال هذه الارقام والمعطيات قياس مدى عمق انغراس الاحتجاج والاصدار الامازيغي بالقبائل فبالرغم من سنوات الضغط والقمع لم يستطيع الحكم المركزي او لم يعرف كيف يقضي على هذا التطلع من وراء القلاقل الظرفية وحوادث مباشرة وغير مباشرة لحلقات قمعية شديدة – الاشد من نوعها حصلت بالاخص في ١٩٨٥ - ١٩٨٦ . تبقى يقظة الوعي بالذات الامازيغية بالتاكيد ظاهرة لارجعة فيها بالقبائل وخصوصا ان الحركة الثقافية الامازيغية تمكنت من اعطائها تعبيرا يمارس في واضحة النهار وله متتبعون لا ينكرون سواء على الصعيدين الوطني او العالمي .

مصداقية عالمية متزايدة

من المؤكد ان الاحتجاج الامازيغي استفاد كثيرا من مواقعة الخلفية بالخارج اذ ان وجود اقطاب امازيغيين قدامى ومجربون بالمهجر

جنب هذا الاحتجاج الاختناق والاختزال الى الصمت من خلال قمع طائش بمنطقة القبائل بفضل نشاط الناطقين بلسانه بالخارج . لقد كانت الوضعية الداخلية تنقل بانتظام الى علم الراي العام العالمي اذ اصبح للقبائل الحق منذ ١٩٨٠ في تغطية صحيفةعالمية خاصة تماما .وكان لذلك لا محالة ، مفعولة بخصوص القمع الذي يمارس ضد القبائل ويفسر في جزء كبير منه التريث النسبي للسلطات في هذا الميدان .

هنا ايضا احدى اهم اسهامات الحركة . فيتجاوزها الظواهر الحظر الذاتي الوطنية القوية جدا بالجزائر - تمكنت من كسر جدار الصمت الذي كان يحيه بكل قمع يمارس بالجزائر منذ الاستقلال يلعبها وبشكل متقن بالخطوة التي اكتسبها الجزائر خلال كفاح التحرير الوطني وبحركتها الديبلوماسية المفادة للإمبريالية وخصوصا بفضل " مركب المستعمر " الشائع جدا في اوساط الانتلجنسيا والصحافة الفرنسيين . بفضل كل هذه العوامل استطاعت الحكومات الجزائرية المتعاقبة حتي الان ان تربح الجولة وذلك بالتستر ولمدة تقرب من ٢٠ سنة على الممارسات القمعية المنتظمة والانتهاكات الهيكلية لحقوق الانسان والحريات بما في ذلك التعذيب والابادة الجسدية ! فلقد تم خطف اشخاص وحجزهم بشكل غير شرعي تماما طوال سنوات بل وعذبوا دون ان يتحرك احد بل ودون ان تتوصل المنظمات الدولية المدافعة عن حقوق الانسان الى ضبط الحالات والاحاطة علما بها .

لكن منذ تحركات القبائل اصبحت الاضواء مسلطة على الجزائر وبالاخص على القبائل نفسها ان الاخبار ومهما تقوم به السلطات من جهود لطمسها تروج وتشيع بدا الحكم يعلم انه سوف لن يكون بمقدوره من الان فصاعدا ممارسة القمع مع ضمان بقاء ذلك طي الكتمان وبموازة مع ذلك تحقق بالمهجر عمل تحسيسي عميق الى الحد

الذي اتضح فيه ان الفورة الامازيغية لها اكبر تاثير على الساكنة الجزائرية من تاثير وداديات الجزائريين باوروبا وهي تنظيم جبهه التحرير الوطني بالخارج .

اما على المستوى العالمي فقد كان للتدخل المتعاظم للامازيغوفونيين انفسهم في الانتاج العلمي المتمازع(انظر الفصل ٩) اثار ايجابية جدا فقد ساهم التملك التدريجي للداراسات الامازيغية من طرف المغاربيين في جعل هذا المجال ذا مشروعية اكبر واقل اشتباها في ارتباطه " بالاستعمار " وبـ " التلاعبات الخارجية " . ان قطاب الدفاع عن اللغة والثقافة الامازيغيتيين الذي يتطلع به . منذ هذه الفترة جامعيون مغاربيون هو بجلاء اكثر مصداقية . اما "النزعة الامازيغية " فبدات تتشيد تدريجيا في شكل راى عام فكري ذي بعد مغاربي .

هكذا تقوت الصورة الايجابية تقليديا عن الامازيغي وعن الثقافة الامازيغية من خلال التحسن النوعي للاساس العلمي ولكن ايضا من خلال الرنات الديمقراطية والحداثية للثقافة القبائلية الجديدة .

الإنتماء الأمازيغي والديمقراطية

من الجائز أن تتواجد حساسيات وصيغ متعددة في التيارات الايديولوجية المهنية بالمغرب الكبير لكن هنالك أساساً وحدة في ما بينها بخصوص العمق فالمغرب بالنسبة إليها عربي او مسلم وكل تصور ثقافي مستقبلي يندرج بين هذين الحدين اما الانتماء الامازيغي فهو اما مرفوض او محصور في شيئ لا معنى له . اننا لن نستغرب اذا اذا سمعنا الامازيغوفوني - وهو ضحية نفي كهذا - يصبح : " كلا انني موجود واعتزم الاستمرار في هذا الوجود في المستقبل ! " ان ردة فعله كهذه طبيعية ومشروعه .

إن العواقب السلبية المباشرة لهذا الاقصاء على الامازيغي بديهية تماما ؛ كما انه يشكل كذلك خطورة على المجتمع ككل لانه مرتبط وبشكل عام بتصور ضيق للثقافة والحياة الفكرية القائم على عدم التسامح وارادة في توحيد الافكار والحظر وقلب الادوار بين المجتمع والدولة طالما ان المغاربيين لم يضطلعوا بتراثهم في تنوعه وبكل تناقضاته الممكنة فانهم لن يخرجوا من حالة التردي والتخلف الثقافي لا يمكن ان يكون هنالك ابداع ولا حياة ثقافية واقعية عندما نبتر من جسد البلد احدى ابعاده المكونة الاساسية عندما نزرع النسيان التاريخي والثقافي وعندما نفرض (على انفسنا وعلى غيرنا) مشروعات وصلات نسب مصطنعة وعندما نزعم بناء مستقبل مجتمع على اسطورة بدل حقائق ان الوهن الثقافي الفكري السائد بالمغرب الكبير و بالاخص بالجزائر هو نتيجة مباشرة لمختلف حالات " العيب " المصرح بها منذ الاستقلالات ومنها الانتماء الامازيغي بطبيعة الحال ولكن كذلك الحط الرمزي من شان اللغة الفرنسية التي هي اردنا ذلك ام لا معطى متجذر بالمغرب الكبير واحد نواقل ذاكرتنا وثقافتنا اما النتيجة فتمثل في هذا البؤس اللامتناهي الطابع للانتاج الثقافي شبه انعدام للحياة الفكرية في الفضاءات الرسمية او المراقبة من طرف الدولة . التفكير الحي كما الثقافة التي هي في علاقة مع الواقعي يلجأن الى الاماكن الخارجة عن المؤسسات والى السرية والخارج وليس صدفة بطبيعة الحال اذا كان الاساسي في الانتاج الثقافي والفكري المغاربي الجديد بهذا الاسم يتم اما بالامازيغية او بالفرنسية . وليس نعني هذا ان اللغة العربية غير قادرة على نقل ثقافة حية لكن وبكل بساطة لان لهذه اللغة وفي الظروف الحالية هي محط مراقبة قصوى من طرف السلطات السياسية والايديولوجية المهيمنة كل المغاربيين بما فيهم العربوفونيون - سيكونون رابحين من اعادة امتلاك الانتماء الامازيغي ان المغرب الكبير عندما يتصالح مع ذاته ويقبلها في كل تعقدها وتنوعها

يمكنه ان يكون مكانا للخلق والانتعاش في العمق ان مايراهن عليه من خلال الاثبات الامازيغي هو تصور المجتمع نفسه علاقة المواطن بالدولة . ان الحركة الثقافية حاملة لمطالبة يالتعددية وبالتسامح تجاه التنوع والحرية (الفردية والجماعية) انها رفض الاسطورة الوحدة والاغراء التوتاليتاري . ووضح انها تطرح بالقبائل بوجه خاص رسالة اوضح مفادها انه ليس من اختصاص الدولة ان تحدد ولا ان تنتج " ثقافة "- في الواقع هي مجموعة من الاساطير الرسمية – التي سوف يتعين على ان انتمي اليها وانخرط فيها بشكل سلبي فباعتباري مواطنا حرا يعود الى امر التصريح بما انا اياه واما اعتزم كونه والعمل على بناء ذلك ان هويتي ليست – كما قال كاتب ياسين – ملفا (اداريا) تضعه السلطة الشرعية تفتحه وتغلقه على هواها والذي ليس لي الا ان امتثل له ان الثقافة هي الخلق اليومي لمجتمع حر.

في هذا الاتجاه يمكن القول ان الحركة الامازيغية ليست تيارا انطوائيا حركة ضيقة لاثبات الاثني وطنية جديدة بعد وطنيات عديدة انها حاملة لطموح يتجاوزها ونموذج مجتمعي تعددي الذي سوف يتعين عليه ان يسمح لكل المغاربيين بالعيش يوما ما في مجتمع متصالح حيث لان يكون العيب والاقصاء هما القاعدة . حرية ثقافية حرية للغة والثقافية الامازيغيتين لا محالة لكن ايضا حرية بالمعنى العادي وللجميع لان الامازيغوفونيين فهموا ان حقوقهم باعتبارهم اقلية ثقافية لا يمكن ان تكون مضمونة بشكل جاد ودائم خارج مجتمع تكون فيه السلطة بين ايدي المواطن وحيث لن يكون الفرد خاضعا لثروة الدولة او مجموعة تحتكرها .

ان كل تفكير في مستقبل ظاهرة الهوية الامازيغية بالجزائر يقودنا إذن الى طرح بشكل مباشر تقريبا مشكله الحريات وشكل الدولة في هذا البلد وهاهنا بالضبط الرهان الرئيسي للتناقض . اما

الاخرى فقد تم تجاوزها سلفا ان الهجرة الجزائرية بفرنسا فلتت وسوف تستمر في الافلات بالضرورة من المراقبة الايديولوجية والثقافية للسلطة الجزائرية . اما القبائل والساكنات القبائلية فقد اخترقها بشكل عميق ولا رجعة فيه الوعي باختلافها والفكرة " الامازيغية " . اما الاقصاء والقمع - اذا حافظت الحكومة على هذا الخيار فسوف لن يعملا الا على تصعيد الصراع والزيادة في حجم الفجوة .

ان السؤال العالق اذن يتمثل في معرفة ما اذا كانت سلطة الدولة بالجزائر مستعدة اولا للقيام بتحول ديمقراطي يستطيع من خلاله الامازيغوفونيين ان يجدوا فيه اندماجا مقبولا يضمن لهم البقاء كهوية ثقافية لكن المناضلين الامازيغيين يعملون في الوقت الحالي وبوجه خاص من اجل تقوية والارتقاء بتراثهم اللغوي والثقافي الخاص وكيفما كانت الاغاد فان مستقبلهم سيصنع من خلال هذه العدة التي يعدونها .

الهجرة (فرنسا)

يشكل الامازيغوفونيون بفرنسا احدى اهم الجاليات الاجنبية حتى ولو ان وجودها وهويتها الخاصة نادرا ما يلفت اليهما من طرف والملاحظين الفرنسيين يحصل خلط هذه الجالية بمجموع الهجرة المغاربية ومن ثم تصنف كجزء من الساكنة المدعاة " عربية " .

تعمل الجنسية على التصعيد من عملية الخلط هذه لان الامازيغوفونيين هم قبل كل شيئ اما جزائريين مغاربة اوحتى تونسيين و ... فرنسيين ان الاداة القانونية للجنسية لا تسمح اذن بالالمام بهذه الساكنة نضيف الى ذلك كون احصاءات الساكنة بفرنسا لا تولى اهتماما للغة الام للذين يتم احصاؤهم . هكذا يكون من الصعب بمكان الدفع بارقام دقيقة بخصوص اعداد الامازيغوفونيين بفرنسا .

اما البحث في البلدان الاصلية لهذه الساكنة - اى امكانية استغلال احصاءات بلدان الهجرة - فلا تسمح كذلك بتجاوز هذه الصعوبة . اذ ان التقطيعات الادارية (ولايات . جهات . اقاليم) المستعملة في التقصيات الجزائريةوالمغربية ليست قارة عبر الزمن فلقد شهدت الجزائر عدة تقطيعات جديدة التي ليست دائما متجانسة لغويا بوجه خاص فولاية سطيف السابقة مثلا تضم القبائل الصغرى الامازيغوفونية لكن ايضا منطقة عربوفونية واسعة يتوجب لا محالة مقاربة الجماعات واحدة تلو الاخرى لتضيف وبشكل جدي المهاجرين الامازيغوفونيين انطلاقا من بلدهم الاصلي

وسوف يتعين لا محالة ايضا القيام بالعديد من التحقيقات الميدانية بخصوص المناطق المتواجدة على الحدود.

فضلا عن ذلك لا يجب ان يغيب عن بالنا ان المهاجرين بفرنسا كانوا لفترة طويلة عمالا لا غير فهجرة العائلات هي ظاهرة حديثة العهد والتي لن تصبح ذات دلالة الا مع الستينيات لهذا فان المهاجر ينتمي قبل كل شيئ بالنسبة للدولة الفرنسية وارباب العمل والعلوم الاجتماعية الى نمط الانسان الاقتصادي Home economics . ينظر اليه قبل كل شيء كفوة عمل متنقلة بين دولتين هكذا نجد ان الادبيات الاقتصادية والقانونية حول الهجرة المغاربية غزيرة بينما لم تستحث الجوانب الثقافية واللغوية للظاهرة الهجرية الا القليل من الاهتمام والاعمال في الفترة الاخيرة لم تبدا الاشياء في التغير الا بعد ان اضحى بديهيا ان الساكنة المهاجرة تندمج في غالبيتها بفرنسا .

ان كل محاولة ترمي الى تعداد كمي للمناطق الناطقة بالامازيغية بفرنسا لن تكون الا تقريبية لا يمكن ان ندفع الا بتكهنات عامة من المؤكد ان الهجرة المغاربية نحو فرنسا (اوروبا) كانت قبل كل شيئ أمازيغوفونية سواء في الجزائر او في المغرب فشعاب الهجرة الاكثر قدما هي القبائل وسوس التحقت بها بعد ذلك وفي تاريخ حديث العهد مناطق امازيغوفونية كالاوراس بالنسبة للجزائر والريف والمنطقة الشرقية بالنسبة للمغرب .

الامازيغوفونيون من اصل جزائري

أتت الدفعات الاولى من المهاجرين من القبائل ابتدات حركتها بعد سحق انتفاضة س١٩٧١ واصبحت ذات دلالة بداية هذا القرن قبل ذلك كان سلفا لعدد من القبائل تقليد متين في ممارسة التجارة المتجولة بل وحتى في هجرة اليد العاملة فقبل ١٩٣٠ كان عمال

المانفاكتورات التركية بالجزائر العاصمة قبائليون منذ مدة طويلة عرفت القبائل توازن اقتصاديا ديمغرافيا متدهورا فككل الجهات الامازيغوفونية تقريبا تضم القبائل ساكنة شديدة الكثافة ليس بمقدور فلاحة جبلية توفير قوت لها بتدمير الاستعمار الفرنسي لقواعد الاقتصاد التقليدي افقد النسق توازنه بصفة نهائية . الساكنة الزائدة عن الحد الرواسب العقارية ١٩٧١ وانهيار الصناعة التقليدية كل هذه العوامل دفعت القبائليين الى البحث عن وسائل لضمان الكفاف خارج منطقتهم الالتحاقات العديدة بالجيش الفرنسي (مع المشاركة في الحملات الاستعمارية بمدغشقر . المغرب ...) وكذا اقامة المدرسة الفرنسية بالقبائل - حتى ولو ان الاجبار المدرسي المؤسس سنة ١٨٨٥ بقى نظريا على نطاق واسع - كل هذا صعد من وتيرة الحركية وفتح افاقا جديدة لساكنة تعاني من مشكلة الحفاظ على البقاء .

في ١٩١٤ بدانا نعد ١٣٠٠٠ جزائري بفرنسا .١٠٠٠٠ منهم ينحدرون من القبائل الكبرى والصغرى . ولقد هب ارباب العمل الفرنسيون للتو لطلب هذه اليد العاملة المطواعة والمتحمسة للعمل في ٧ / ١٩٠٦ .

سيجلب عمال قبائليون بهدف كسر اضرابات مصانع الزيوت والصابون بمرسيليا . بعد ذلك اندلعت الحرب العالمية الاولى وسيزداد الطلب على عمال يحلون محل عمال فرنسيين ذاهبين الى الجبهه مما سيصعد من وتيرة الحركة ويجعلها تمتد الى مجموع التراب الجزائري . فطوال الفترة المتدة ما بين ١٩١٤ / ١٩١٨ . هنالك ٢٤٠,٠٠٠ مجند او مطلوب هكذا بعد ١٩٢٠ . ستصبح الهجرة الجزائرية اكثر تنوعا لجهه اصولها واقل قبائلية بشكل بين سوف تبلغ سنة ١٩٥٤ الى ٢١٢٠٠٠ . مايربوعن نصف هذا العدد هو قبائلي الاصل قدر هدد هؤلاء في هذا التاريخ ب١٢٠,٠٠٠ قبائلي . بعد الاستقلال ستتعاظم الحركة

الهجروية . فمن حوالي ٣٥٠,٠٠٠ شخص سنة ١٩٦١ . سنصل سنة ١٩٧٥ الى ٩٠٠,٠٠٠ بعد القرارين الجزائري (١٩٧٣) والفرنسي (١٩٧٤) القاضيين بايقاف الهجرة يبدو وان عدد هذه الساكنة سائر نحو التناقض في السنوات الاخيرة . لان المصادر الفرنسية الرسمية تقدرها على انها اقل من ٩٠٠,٠٠٠ شخص الا ان الذي يفسر هذا التناقض لربما وبشكل جزيئ هو قانون الجنسية الفرنسية اذا ان الاطفال المزدادون بفرنسا بعد ١٩٦٣ هم فرنسيون بشكل اتوماتيكي .

بعد ١٩٦٢ ستصبح الهجرة الجزائرية اقل قبائلية شيئا فشيئا سوف يستمر القبائليون في مغادرة القبائل لكن لهذه المرة للاستقرار بالمدن الكبرى للبلد وبوجه خاص بالجزائر العاصمة فقد تم استبدال الهجرة الخارجية اذن بهجرة داخلية الا ان منطقة امازيغوفونية اخرى تدخلت لتحل محل القبائل في التوقف نحو الخارج وبحدة اقل يتعلق الامر بالاوراس التي اصبحت تعطي الجزء الاكبر من المهاجرين الجدد بعد الاستقلال يجب ان نضيف الى المهاجرين (الكلاسكيين) القبائليين ذوي الجنسية الفرنسية . الموظفون الذين كانوا لصالح فرنسا سنة ١٩٦٢ وغالبا لاسباب ودواعي تتعلق بالمشوار المهني - اضف الى ذلك عددا صعب التقدير من الحركيين .

في المجموع ستقارب حاليا الساكن ذات الاصل الجزائري بفرنسا مليون ونصف شخص (حوالي ٨٠٠,٠٠٠ ذوي الجنسية الجزائرية واقل من ذلك بقليل من ذوي الجنسية الفرنسية) . من مجموع هذا الرقم يمكننا الاعتقاد بان الثلث من هذا المجموع امازيغوفوني . ان تقديرا من ٥٠٠,٠٠٠ امازيغوفوني ذوي اصل جزائري غالبيتهم قبائلية هو تقدير يبدو معقولا .

الامازيغوفونيون من اصل مغربي

في المغرب ايضا نسجل ان المناطق الامازيغوفونية هي البؤر القديمة والمهمة للهجرة وبالاخص سوس (المناطق الخلفية لمدينة اكادير) الريف والمنطقة " الشرقية " هنا ايضا تستذ الحركة الهجروية في الغالب على تقليد سابق واصبحت مكثفة مع اثر الاستعمار في البدء حصلت الهجرة المغربية في اتجاه الجزائر

(وهران) في ١٩٤٠ تم تعداد ٤٠,٠٠٠ الى ٥٠,٠٠٠ مغربي بالجزائر ان شلوح سوس هم الذين بدؤوا حركة الهجرة في اتجاه فرنسا انطلقت هذه الظاهرة ابتداءً من ١٩٤٥ لكنها ظلت ضعيفة حتى الاستقلال وستتسارع وتيرتها بعد ١٩٦٠ لكي تعل إلى ٤٢٠,٠٠٠ شخص سنة ١٩٨١.

ولو أنه في الحقيقة الأخيرة أخذت الهجرة تمتد إلى مجموع التراب المغربي مع نسبة قوية من المدنيين الجدد والمنحدرين من السهول العربوفونية فان المناطق الأمازيغوفونية استمرت في إمداد هذا التدفق بالنصيب الأكبر (مايقرب من النصف على الأرجح) ففي الريف وحده تعد ١٠٠,٠٠٠ منها سنة ١٩٧٥

(مستقرون في غالبيتهم بفرنسا ولكن كدلك بـ بلجيكا والاراضي المنخفضة و المانيا الغربية) تجيز نسبة ٥٠٪ من الأماريغو فونيين في صفوف الهجرة المغربية بفرنسا أي ما مجموعة ٢١٠,٠٠٠ شخص على قاعدة من الأرقام الفرنسية سنة ١٩٨١.

يمكن إذن تقدير عدد الأمازيغونيين في أقصى الحالات في أوساط الساكنة المنحدرة من المغرب الكبير والمقدمة بفرنسا بحوالي ٧٠٠,٠٠٠ شخص من بينهم حوالي ٥٠٠,٠٠٠ أمازيغوفوني من أصل جزائري

(ما يقارب ٥٠٪ من الساكنة المغربية) من مجموع كلي يقدر بملونين نسمة نصل إذن إلى نسبة عامة تقدر بالثلث .

يتبقى هذا التقدير افتراضيا لكنه متناسب في نفس الوقت مع مايعرفه عن الظاهرة الهجروية المغاربية ومع أرقام الساكنة الأمازيغوفونية في البلدين المعنيين

(الجزائر : ٢٠ إلى ٢٥ ٪ و المغرب ٤٠ إلى ٤٥٪) .

بعض السمات السوس وثقافية للهجرة

حتى عهد تقريب ظل المغاربيون بفرنسا عبارة عن ساكنة من المهاجرين اى اساسا كاناس يتجهون بانظارهم الى البلد الاصلي ويعيشون شرطهم كوضع انتقالي لفترة طويلة (على الارجح حتى ١٩٧٠) كانت الهجرة بمثابة عملية تمثيل او انتداب يقوم به عضو من العائلة من الجماعة وهو تمثيل مراد ومعاش كشئ مؤقت . يظل العامل المغاربي بفرنسا مرتبطا بكل جوارحه ببلده الاصلي الذي يذهب اليه بشكل منتظم والذي ترك به عائلته وزوجته وابناءه اضف الى ذلك ان هذ الهجرة التي كانت في بدايتها جد فورية تخلق نقاط تجمع دول عائلة ، قرية ، قبيلة او جهه . يتجمع المهاجرون حول (راس جسر) وقد يكون هذا ابا سباقا الى الهجرة ، مقهى - فندق مؤتث يرعاه ابن (البلد) انه مخفر حقيقي في ارض اجنبية .

يسع المغاربيون بارض المهجر الى اعادة انتاج وتقوية ميزاتهم الجهوية والثقافية واللغوية . فكما يصف ذلك بشكل رائع (بوكسا ٥٢ : ١٩٨١ (bouguessa)

" انعزال ، تقوقع ، لغة تفاهم خاصة ، هامشية سوسو ثقافية وجوغرافية ، كلها عوامل تجعل من هذه الجماعات فضاءات لغوية

وثقافية منعزلة على الارض الفرنسية .

ان نمط اندماج المغاربيين في البلد المضيف يحول عموما دون أي احتواء لهم ويقوي التضامنات والولاءات العائلية والقروية والجهوية . تنتهي هنا الى نوع من التثبيت لـ (fixation) والتقوقع على عدد معين من العلامات التي تحتوي على قيم رمزية قوية : اشارات خارجية للتماهي . لباس . لغة . ان المتحدات (les communawst) المغاربية في فرنسا نرى بشكل عام (تقاليدها الثقافية تنبعث فيها الحياة من جديد بفعل الهجرة) (ايات مسعود وجيليت ١٩٩٦ : ٣٦/ ١٠٣) . تعلم الفرنسية يختزل الى الحد الادني الضروري وتبقى لغة التواصل الداخلية داخل الجماعة هي لغة البلد الاصلي .ان تصبح فرانكوفونيا بشكل طاغ هو بمثابة انزلاقة خطيرة بالنسبة للمهاجر لأنه يؤدى الى مجازفة خلق تباعد مع البلد والثقافة الأصليين. بل إن درجة إتقان الفرنسية هو في الغالب علامة سارقة على القطيع مع البلد الأصلي و الاحتواء من طرف البلد المضيف. هذا إذا وضعنا جانباً بطبيعة الحال حالة المثقفين الذين تختلف طبيعة ارتباطاتهم بالبلد الأصلي .

تم التحقق من هذه الترسيمة بخصوص الاعمار المتقدمة في صفوف الهجرة ولازالت صالحة بالنسبة للعمال المنعزلين على نطاق واسع ان التطور المحسوس منذ ١٩٦٠ للهجرة العائلية امكنه في مقام اول ان يحدث مفعول تقوية لهذا النزوع ذلك ان النساء اللائي هن في الغالب منحدرات من وسط قروي يعلن الى فرنسا وهن يتحدثن لغة واحدة فقط .

هكذا نلاحظ ان وجدت طوال عقود من الزمن مجموعة كاملة من المعطيات فوتها بشكل بنيوي حالة التهميش الاقتصادي لهذه المعطيات التي لعبت دورا اساسيا في الحفاظ على لغات البلد الاصلي

والتي توجد من بينها الامازيغية .

استغلال زائد عن الحد ، تهميش ، انطواء على القيم الثقافة واللغوية الخاصة كل هذا ادى - كلما سمعت الظروف بذلك الى ظهور وعي هوياتي وقومي .

يحق الا نستغرب اذا لاحظنا أن الهجرة المغاربية ، وبالأخص الأمازيغية منها ، كانت ميدانا مهيئا ، وبالأخص لكي تنمو فيه الوطنية الجزائرية من ١٩٢٠ الى ١٩٦٢ في مرحلة أولى . ثم لتأكيد ثقافي وسياسي أمازيغي (قبائلي) في مرحلة تالية أي بعد الاستقلالات إن كل المنظمات الراديكالية للوطني الجزائرية ولدت في أرض الهجرة مع إنغراس وتأطير قبائليين طاغيين .

(نجمة شمال افريقيا : باريز ، ١٩٢٦ ، حزب الشعب الجزائري باريز ١٩٣٧)

إن التحولات التي نتبينها منذ ما يقرب من ١٥ سنة مرتبطة بما يصطلح على تسميته "الجيل الثاني" في أوساط الشباب المولودين بفرنسا يكون الإخلاص للغات الأصل أقل بروزا . نلاحظ أنه ، وبشكل مطرد ، وحتى ولو تعلق الأمر بتطور على المدى الطويل أن وضعية الهجرة ليست في صالح الحفاظ على ممارسة الأمازيغية . لكنها بالمقابل تناسب جيدا بروز وعي بالهوية الذي يصبح حيا أكثر فأكثر . إن تناقض هذه الصورة ليس الا ظاهريا . إذ أن أدراك خطورة إختفاء لغة هو الذي يؤدي - لامحالة - الى اليقظة الهوياتية .

وفي نفس الوقت ، وفي مجتمع كفرنسا المطبوع بعمق بالعنصرية المعادية للعرب ، قد تكون للمرجعية الأمازيغية، بالضبط ، وظيفة إعلان تميز . ففي الثقافة الغربية ، وبالأخص الفرنسية منها .

لأمازيغي صورة ايجابية بالنسبة للعربي . يبدو أن هذا الدور لايستهان به على مستوى "الجيل الثاني" وبالأخص لدى الفتيات اللائي تمثل الهوية الأمازيغية . بالنسبة لهن في ذات الوقت علامة لأصالة مثمنة وقابلة للتثمين ، وكذلك أداة للتباعد عن المرجعية العربية الإسلامية التي ينظر إليها ، عموما ، كعامل قمع للمرأة . في بلاد الهجرة ، كما هو الشأن في البلدان الأصلية ، فإن الإثبات الأمازيغي كان وبقي – قبل كل شيء – قبائليا وجزائريا (شاويو الأوراس ليسوا غائبين) ، أما بخصوص الأمازيغوفونيين المغاربة ، وعلى الأقل على مستوى الممارسة ، فإنه لايبدو أنه مستهم الظاهرة بشكل دال . إن هذه الخصوصية القبائلية ضمن الهجرة الأمازيغوفونية لها أسباب متعددة ، أكثرها بداهة يتمثل في نسبة تمركز المهاجرين طوال طور طويل جدا للحركة الهجروية المغاربية (قدم لهذه الهجرة ، وبلاشك كذلك ، حضور نخبة مثقفة قبائلية مهمة بفرنسا وتسييس أكثر قدما وأكثر شمولا ؛ وبالأخص – سنعود الى ذلك آثار السياسة اللغوية والثقافية المتبعة من طرف الجزائر المستقلة .

الهجرة : المكان المميز للإثبات الأمازيغي

" الأزمة الأمازيغية " (١٩٤٨-٤٩)

إن أول صلة يمكننا ضبطها بين الهجرة القبائلية بفرنسا والمطالبة الأمازيغية حصلت تاريخيا في فترة محورية قديمة للوطنية الجزائرية : ١٩٤٥-١٩٥٠ . في هذه الفترة بلغت الحركة الوطنية ، وبالأخص في فرعها الراديكالي (حزب الشعب الجزائري للحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية) درجة متقدمة من الإنغراس وكانت القبائل والمناطق ذات الهجرة القبائلية القوية (الجزائر العاصمة – فرنسا) معاقلا لها .

هكذا إذن حدث في الوسط القبائلي . وتحت وطأة جيل من المناضلين الشباب تلاقي بين الوطنية الجزائرية والإحالة الى الهوية الأمازيغية الذي سيخلص في ١٩٤٨-٤٩ الى ما سنسميه بعد ذلك "الأزمة الأمازيغية" (أنظر الفصل ٢) ظل عدد من النقاط غامضا بخصوص تكون وتطور هذه الأزمة .إلا أن الأعمال الراهنة (حربي آيت احماد ، كارلبي، وردان) تلتقي على الجوانب الآتية :

لقد فوت الأزمة داخل الوطنية الجزائرية نزعة معادية للأمازيغية . أما النزعة المعادية للثقافة فقد قوت ، من جانبها أيضا ، نزعة سلطوية ؛

- لقد هزت هذه الأزمة منطقة القبائل ، لكن ، بالأخص ، فيدرالية فرنسا التي كانت مسرحا لمقاومة شرسة ، وطوال شهور ، بين القيادة المركزية والمتمسكين بالخط الأمازيغي .

هؤلاء الذين نجحوا عمليا في أخذ زمام المراقبة بداخلها . في أواخر ١٩٤٨ ، تكون اللجنة الفيدرالية قد تبنت أطروحات التيار المتمازغ ب ٢٨ صوتا ضد ٣٢ (المصدر : آيت احماد ، ١٩٨٣ ، ١٧٩) .

كيفما كانت تقديراتنا للوضعيات التي كان فيها المتناحرون في هذه الأزمة ، فإن هذا المعطى ، لوحده ، دليل على الدور البارز للقبائليين في الحركة الوطنية بفرنسا ، وعلى حساسية جد حادة ، منذئذ للفكرة الأمازيغية في الأوساط المهاجرة العمالية أساسا إن نشاط "المتمازغين" بفرنسا لم يكن ممكنا لولا قابلية التلقي القوية للفكرة الأمازيغية في أوساط الساكنة والمناضلين القبائليين . إن "متمازغي" ١٩٤٨-٤٩ لم يكونوا – كما حاول (ولازالو يحاولون) ايديولوجيو الوطنية الجزائرية أعطاءه مصداقية – "جماعة صغيرة من المثقفين" دون قاعدة اجتماعية .

مابعد الإستقلال (١٩٦٢ - ١٩٨٠) : الهجرة الأمازيغية

بعد إنقطاع طويل راجع الى حرب التحرير انطلق مجددا مسلسل التكفل بالرقي باللغة والثقافة الأمازيغيتين ابتداء من ١٩٦٥ . لقد تم مجددا توظيف هذا الحقل ، بطريقة نشطة ، من طرف جماعات وشخصيات عديدة كانت العاقبة المباشرة لوضعية الإقصاء الشبه الكلية للأمازيغية بالجزائر هي الإنتقال المكثف بالنشاط المتمازغ الجزائري الى باريز. منذ ذلك الحين ، فإن الجزء الغالب من الإنتاج الأمازيغي ذي الأصل الجزائري تم إنجازه بفرنسا.

وإذا كان ممكنا ، رغم كل شيء ، حصول نشر وإعادة إمتلاك بالقبائل ، فلأن المنظومة الجزائرية تعاني من ثغرات تمكن التوجه الأمازيغي النضالي من التسلل من خلالها من جهة أولى إن نقاط الدعم التمركزة بالخارج كانت ذات فعالية كبيرة بحكم أهمية الهجرة القبائلية وكثافة المبادلات وحركة الأشخاص بين الجزائر وفرنسا . ومن جهة ثانية، مثلت الأغنية ناقلا ، بشكل فوق عادي ، سمح جزئيا بمداورة العائق المؤسساتي .

العمل الثقافي واللغوي بأرض المهجر

الأغنية :

بإعتبار منطقة القبائل جهة ذات ثقافة شفاهية فإنها عرفت منذ - ظهور الألات الحديثة (كالأسطوانة ، المذياع المانيطوفون ثم الأشرطة) إنتاجا قويا في مجال الأغنية . إن الإبداع والنشر كانا دوما مسموحا بهما كثيرا أو قليلا - على أرض الجزائر نفسها . صحيح أن العقبات ومجالات الحظر كانت دائما عديدة ، لكن ظل مع ذلك ، الإبداع

ممكنا. يفسر هذا التسامح النسبي بكون السلطات لاتتوفر (وتتوفر أقل فأقل) على وسائل المراقبة المضبوطة للإنتاجات ومحتوياتها . ولكن أيضا ، لكونها استصغرت ، ولمدة طويلة ، آثار ودلالات هذه الإنتاجات التي توضع في مصاف "الفولكلور" أو "أغاني المنوعات" .

وهاهنا بالضبط غلط سوسيو - ثقافي جذري ، لأن الأغنية القبائلية المعاصرة لعبت دورا أساسيا في تقوية الوعي بالهوية لدى القبائل ؛ إذ ساهمت ، بقوة ، في إمداد ماكان التزاما ونشاطا خاصا بجماعات محدودة من المثقفين ، بقاعدة شعبية . في هنا الإتجاه ، كان الشريط إبداعا ثوريا ، بحق ، للثقافة الأمازيغية .

فمنذ النقد الإجتماعي والأخلاقي الكتوم والكلاسيكي جدا لـ سليمان عزام حتى الإحتجاج المفتوح والحاد النبرة للأغنية القبائلية الجديدة (إيدير ، آيت منكلات ، فرحات..) مثلت أرض المهجر دائما المكان المميز إنتاج الأغنية الأمازيغية .

إن تواجد جمهور عريض بفرنسا ، وكذلك دور نشر - تجارية مناضلة - والوسائل التقنية التي غالبا ما لا تواجد بالجزائر ، سمعت كلها للأغنية القبائلية بأن تحافظ على نفسها وأن تقويها وتضمن لها الحصول على مستمعين على الصعيد العالمي ، وكذلك لإثبات استقلالها عن الايديولوجيا المهيمنة بالجزائر - فأغلبية المغنيين القبائليين سجلوا أغانيهم ، أصلا ، بفرنسا .

إن الخروج من النطاق التراب الجزائري هذا ، سهل إذن ، وعلى نطاق كبير ، البحث والتجديد الموسيقي كانت الهجرة عاملا وحيزا مناسبا لنمو أغنية قبائلية أصلية في أشكالها وموضوعاتها مرتبطة بشكل حميمي بدينامية الحركة من أجل الهوية الأمازيغية .

بجانب الأغنية الحديثة لعب نتاج طاووس عمروشError! Bookmark not defined. دورا رمزيا لايمكن إهماله.

إذ عرفت الأسطوانات التي سجلها بفرنسا والعديد من الحفلات الموسيقية التي أحياها بالغناء التقليدي القبائلي وحققت له الإعتراف على المستوى العالمي .

ومنذ بداية ١٩٨٠ ، أخذت الإذاعات الحرة مكان قناة الإذاعة القبائلية التابعة لـ (ORTF) والتي تبث حتى١٩٧٢، وكانت جد منخرطة في الدفاع عن الثقافة الأمازيغية. فقد شكلت بباريز، وفي المدن الأخرى (مارسيليا، ليون ...) ناقلا قويا وفعالا لكل الإنتاج الموسيقي القبائلي .

دور النشر الأمازيغي بالمهجر

إذا كانت رقابة الدولة الجزائرية متساهلة أساسا مع الأغنية ، فإن التعبير المكتوب ، بالمقابل ، كان دائما عرضة لمراقبة متشددة . ذلك في مزاولة الرقابة المطلقة والمباشرة على الصحافة والإحتكار التام من طرف الدولة للطبع والنشر . إن بعض مظاهر المرونة الحديثة العهد (ظهور عدد من الناشرين الخواص) لايغير من الوضع شيئا ، لأن الدولة تهب ، في نفس الوقت ، لنفسها كل الوسائل الشرعية لممارسة حظر مسبق وتحتفظ بحق الرقابة على النشر . فإنتاج أمازيغي مكتوب - ومشروع - كان ولازال تقريبا شيئا غير قابل حتى للتصور بالجزائر .

هذا في حين أنه وجد بالجزائر العاصمة ، في ما مضى ، تقليد قديم في النشر بالأمازيغية ، وهو ما وضع له حد سريع مع الإستقلال . وسيظهر المجموع شبه الكلي للإصدارات الأمازيغية بعد ١٩٦٢ بفرنسا . فـ مولود معمري، سينشر مؤلفاته حول الأمازيغية لدى ماسبيرو

(١٩٦٩ ، ١٩٧٦ ، ١٩٨٠) ، وكل الإنتاج اللغوي والبيداغوجي والأدبي ذي المصدر الجزائري سيرى النور بفرنسا داخل الأطر الجهوية و أو الجامعية .

إن هذا النشر الأمازيغي المهاجر ، حتى ولو لم تكن القنوات الرسمية تروجه فقد كان له أثر أكيد على البلد الأصلي حيث يتم تداوله نسبيا بشكل جيد . هكذا فإن المدخل الصغير الى الكتابة بالأمازيغية لـ رمضان عشاب ، الذي أصدرته تعاونية "إمديازن" حقق نجاحا مهما ، بالنظر الى حجمه في المكتبات ، وليس من قبيل الإدعاء القول أن آلاف الشباب القبائلي تعلموا قراءة وكتابة لغتهم انطلاقا من الكتب الصادرة بفرنسا ! .

تدريس الأمازيغية

كل المجموعات والجمعيات الأمازيغية – على عدم إستقرارها – أعطت دفعة لتجارب تدريس الأمازيغية. إن أغلب الإصدارات والدوريات المشار اليها أعلاه ، كانت كلها مطبوعة بنزوع بيداغوجي واضح. وحتى ولو كانت هنالك ، ولازالت ، أكثر فأكثر ، دروس استئياس موجهة لغير الأمازيغوفونيين ، فإنه، وفي مجال محو الأمية في أوساط الأمازيغوفونيين أنفسهم (مدخل للكتابة بالحروف اللاتينية والتيفيناغ الجديدة). أقول في هذا المجال كان العمل قارا أكثر وفعال أكثر .

في ١٩٧٣ ، أفتتح درس اللغة والحضارة الأمازيغيتين بجامعة باريز III (فانسين) ، أنشأت جماعة الدراسات الأمازيغية . في نفس السنة ، نظم تدريس تحضيري في الإختبار التكميلي في الأمازيغية بمستوى الباكلوريا بباريز وفي ثانوية (هونوري دو بلزاك) . أما خارج الأطر الجامعية الكلاسيكية (EPHE , INALCO) فنجد ثمانية دروس منظمة في المنطقة الباريسية حاليا ، يتجاوز هذا العدد ١٠ دروس : تنظم عموما في إطار جامعي (باريز III باريز III و باريز III) أو داخل جمعية ثقافية

(كجمعية الثقافة الأمازيغية أبريدا ...) أو دار للثقافة أو بلدية في المناطق ذات الساكنة المهاجرة القوية عدديا (سانت كوين ، كريتي ...)

من جهة أخرى ، تتضاعف الطلبات من أجل تدريس الأمازيغية كذلك في الإطارات المدرسية (الطور الثانوي)، دون أن يكون ، مع ذلك ، من الممكن الإستجابة لها جميعها . في غياب التأطير إن هذا المطلب هو من الملحاحية . بحيث أن تدريبا من طراز "تكوين المكونين" يتم تنظيمه كل سنة منذ ١٩٨٣ من طرف مجموعة من الجمعيات البارزية ومكتب الهجرة بكريتي (CRETEIL) ؛ بل لقد شاهدنا ، في ١٩٨٣ ، ٨٥ تجربة تدريس الأمازيغية في مدارس إبتدائية باريسية ، والتي بادر الى القيام بها (ي / دجافري) بمدرسة (ماريس هيلز) .

تطورات راهنة

منذ ١٩٨١ ، ترتب عن مجموعة من العناصر منها : مرونة القوانين المنظمة للجمعيات الأجنبية ، الإذاعات الحرة وبعض الجهود الموجهة لتدريس لغات الأقليات ، وبالأخص قابلية أكبر للإنصات الى المشكلات الثقافية للمهاجرين ، أقول ترتب عن كل ذلك تطور ملحوظ للأنشطة الأمازيغية بفرنسا .

فلقد ظهرت أعداد كبيرة من الجمعيات الجديدة أو التجمعات في مدن كـ مارسيليا و ليون و روبي و تولوز و سانت إتيان .. يحصل تضافر الجهود عموما حول إقامة درس في الأمازيغية أو مشروع إذاعة أو بث بالأمازيغية. هكذا نحصي ثمانية برامج أمازيغية أسبوعيا في مختلف الإذاعات الجهوية بمارسيليا .

مؤشر قابل للتكميم : الإختبار التكميلي في الأمازيغية بالباكالوريا

رغم أنه كان منتظرا منذ مدة طويلة . بالنظر الى النصوص القانونية ، فإن الإختبار في الأمازيغية لم ينظم إلا في الأكاديميات الباريزية . وقد أفتتح أيضا في أكاديمية مارسيليا . وفي ماي ١٩٨٥ الذي صادف السنة الأولى من وجود هذا الإختبار ، كان علي شخصيا أن أمتحن ١٤ مرشحا في سنة ١٩٨٦ . وفي سنة ١٩٨٦ ، أرتفع العدد الى ٤٢ مرشحا ، وفي ماي ١٩٨٧ ٥٢ مرشحا ، وفي ١٩٨٨ ٧٠ مرشحا وما يقرب من ١٠٠ في ١٩٨٩ وتكون الأرقام أكثر إيحاء إذا أخذنا في الإعتبار المعطيات الباريزية . فما بين ١٩٧٨ و ١٩٧٩ وهما السنتان اللتان كان علي فيهما أن أشرف على الإختبارات في الأكاديمية الباريزية ، قمت بامتحان حوالي ٣٠ الى ٤٠ مرشحا . في ١٩٨٧ كان العدد الذين تقدموا الى الإختبار ٥٤٤ مرشحا على المستوى الوطني . إن الأمازيغية هي اللغة المطلوبة أكثر في الشفوي التكميلي بالباكالوريا بعد اللغات المحلية لفرنسا (الأوكستانية ، الألزاسية ، البروتونية) .

يمكننا أن نعاين وضعيات مماثلة في الجامعة حيث شهد تدريس الأمازيغية تطورا كبيرا بـ (إيكس ، باريز III وباريز III) ففي (إيكس) مثلا تتابع دروس الأمازيغية بجامعة (بروفانس) بشكل منتظم كل سنة من طرف ما يزيد عن ٣٠ طالبا منذ إنشاءه في ١٩٨١-١٩٨٢ .

تكفي كل هذه الأرقام لتبان أن المرجعية الأمازيغية بالمهجر ليست وهما "فولكلوريا" أو إرادة لأصالة تكون بأي ثمن ، بل واقعا حيا في أوساط الساكنة المغاربة المقيمة بفرنسا . إن كان عمل المناطق الأمازيغيين المهاجرين سيخلص يوما ما الى التكفل باللغة والثقافة الأمازيغيتين في الأطر المدرسية ، فإن من شأن ذلك أن يؤدي بنا الى هذه الوضعية المفارقة حيث ستكون الأمازيغية معترفا بها ومدرسة من الدولة الفرنسية بينما ليست كذلك في البلدان الأصلية .

خصوصيات وتطورات الميدان المهاجر

توجد صلة عميقة ودائمة بين الفورة الثقافية بالمهجر والميدان الأصلي (القبائل) إلا أننا بدأنا نلاحظ ، منذ بضع سنوات ميلا إلى إستقلالية العمل الثقافي المهاجر بالنسبة للبلد الأصل ، إذ أن الساكنة المستهدفة ، بشكل ملحوظ أكثر هي الجالية المهاجرة نفسها . إن المنحدر نحو الإندماج هو من الآن فصاعدا ، شيء محسوس. أضحى الإلتزام ثقافيا أكثر، سياسيا أقل ، كما أن المحاور الدائم للأطر الجمعوية هي المؤسسات الفرنسية (التربية الوطنية ، وزارة الثقافة ، البلديات والجهات) . فعدد من الفاعلين الثقافيين يحمل ، على أي جنسية فرنسية ولم تعد له إلا روابط بعيدة مع القبائل .

هذا في حين أن أقطاب العمل الكلاسيكية للنضالية الأمازيغية بفرنسا قبل ١٩٨٠ (كالأكاديمة الأمازيغية ، مجموعات الدراسات الأمازيغية - إمديازن ...) تعمل أساسا كأشكال لإلتزام - خارج وطنها - أراد لنفسه أن يكون جزائريا ويظل كذلك أما النضالية الأمازيغية الجديدة فتنزع الى الإندماج في البلد المضيف. يمكننا الحديث عن نضالية أمازيغية من الجيل الثاني . تصبح الثقافة الأمازيغية شيئا فشيئا بفرنسا ثقافة مهاجرة من بين ثقافات أخرى .

هذا الميل بالإمكان تكميمه أحيانا . فإبان دورة ١٩٨٧ لباكالوريا أكاديمية ايكس مارسيليا ، نجد أنه وعلى مجموع ٥٢ مرشحا للأمازيغية ، ٤٥ منهم ولدوا بفرنسا وحاملو جنسية فرنسية . والأغلبية الغالبة منهم لم تذهب أكثر من مرتين الى المنطقة الأصلية . وعلى إمتداد ٢٠ سنة ، مايقرب

من عشر حالات لم تذهب قط الى البلد الأصلي . واحد من هؤلاء التلاميذ هو الذي يعرف ، بشكل جيد ، اللغة العربية . تقترب

هذه الإعداد من تلك التي نجدها في جامعة بروفانس . ففي كل سنة نجد أن أكثر من النصف هم من جنسية فرنسية ومولود بفرنسا .

منذ ١٩٤٥ على الاقل ، كانت صفوف الهجرة القبائلية ، سواء المؤقتة منها أو النهائية ، هي احدى الأماكن الأساسية لتقوية الوعي الهوياتي . وكان دورها سواء في مجال التخطيط ، وبالأخص في ميدان المرور الى الكتابة وبروز أدب حديث وتقوية أغنية اجتماعية دورا حاسما خلال العشرين سنة الأخيرة .

ولقد كان لعملها على مستوى وسائل الإعلام والرأي الفكري والثقافي الغربي إسهام كبير في زيادة الإهتمام بالأمازيغ ومطالباتهم وكذا باللغة والثقافة الأمازيغيتين .

منذ الإستقلال حلت الهجرة القبائلية بفرنسا كقاعدة خلفية لنشر الأفكار والإخبار ، وكمكان للتجريب البيداغوجي واللغوي . أما خيارات السياسة الثقافية واللغوية بالجزائر المستقلة فقد كانت سببا في هذا التنقل .

فبطرحها للبعد الأمازيغي ، جعلت الجزائر من الهجرة المكان الأوحد لتعبير ممكن للأمازيغ المتشبثين بهويتهم .

مداومات

إذا كانت المعطيات السوسيو سياسية قد تعرضت لتعديلات جذرية منذ بداية هذا القرن فإن هناك أيضا عناصر واقعية تشهد على الإستمرارية في الهوية المتقمصة و(المعادة) البناء . وبالإمكان الإحاطة في سعة . بإنعطافاتها من خلال معالجة الإتجاهات الكبيرة التي أستند عليها العمل اللغوي والثقافي الذي تكفل به التيار الأمازيغي .

إن الأفكار المفاتيح التي توجه ، ضمنيا ، الحساسية الأمازيغية منذ تجلياتها الأولى القابلة للضبط بالقبائل تشكل مجموعة متماسكة من السهل تبيانها لأنها غالبا ما تكون غاية في الوضوح . وقد أدخلت حيز التطبيق . بشكل ملموس . في العمل الثقافي المنجز منذ بداية هذا القرن .

اللغة : العامل - المفتاح

منذ الأعمال الأولى للرواد ، أعتبرت اللغة بالقبائل كسمة محددة وأساسية بالنسبة للهوية الأمازيغية . أكيد أنه يحال أيضا الى التاريخ والثقافة والتنظيم الإجتماعي . لكن سوف تكون اللغة هي التي تبرز دائما كمميز أساسي .

كانت تلك هي مقاربة المتخصصين المحليين في الأمازيغية (سيد كاوي، بوليفا ...) وستتعزز هذه المقاربة حتى الحقبة الحالية حيث لم نعد نتحدث سوى عن الأمازيغوفونيا والأمازيغوفونيين أن النصوص الحالية للحركة الثقافية بالجزائر دقيقة في هذا الخصوص ، إذ أن

المطالبة هي قبل كل شيء لغوية ("الأمازيغية " = لغة وطنية) .

صحيح أن المعيار اللسني ، في مجال المعطيات السوسيو ثقافية القاعدية ، ذو وجاهة مباشرة عندما يتعلق الأمر بالتمييز بين العرب والأمازيغ بالمغرب الكبير . ولايعني ذلك أن العوامل الأخرى ليس بمقدورها أن تلعب دورا بهذا الخصوص . لكن آصرة الدين والتاريخ تخفف بشكل قوي من عناصر التمايز بين المجموعتين فإذا وضعنا جانبا الحالة الخاصة للطوارق - حيث المجتمع والثقافة بعيدان عن النموذج المغاربي ، فإنه تنعدم قطيعة موضوعية جذرية أخرى غير اللغة . بعبارات أخرى فإن المغرب الكبير متجانس نسبيا على المستوى السوسيو ثقافي في الواقع ، إن شئنا أن نحيل الى الثقافة التقليدية فإن الفارق موجود أساسا بين العالم الحضاري (ذي التقليد الكلاسيكي الكتابي والأورثوذكسي) والعالم القروي (سيادة الشفاهية والتقليد المحلي والقيم القبائلية . فلم نكن نسميهم "قبائل " عبثا) في أحضان هذا العالم القروي المغاربي ، لانذهب الى حد القول بإنعدام خصوصية أمازيغية أخرى غير الخصوصية اللغوية . بل إنها غير طابعة له بما فيه الكفاية ؛ على أي إنها أقل بروزا.

منذ بداية هذا القرن ، صلحت اللغة - وليس التاريخ أو تقليد ثقافي أو سمات لتنظيم إجتماعي - كقطب تتبلور من خلاله الهوية . على أي ، فقد تم التأكد حديثا من هذا الميل على الصعيد المغاربي وفي الميدان الجامعي بالضبط لأن الأغلبية الكبيرة من الأطروحات (والمنشورات) المخصصة للمجال الأمازيغي من طرف باحثين منذ الإستقلال تعني باللغة . فالمختصصون المغاربيون في الأمازيغية هم ، بشكل طاغ ، لسنيون . وهو الأمر الواضح بالأخص في المغرب حيث أصبحت الأرقام ذات دلالة في هذا المجال ؛ إذ على مجموع ثلاثين دكتوراه نوقشت ، أكثر من عشرين منها تتناول اللغة (أنظر الفصل ٩) .

دعاة الجامعة الأمازيغية Panberberisme

يحيل المتخصصون القبائليون في الأمازيغية ، بشكل واضح ومنذ بداية هذا القرن الى مجموع الأمازيغوفونية (أي البلاد الناطقة بالأمازيغية – المترجم) إن اللغة الأمازيغية واحدة وكل لهجة ليست إلا شكلا محليا لها . إن الوعي بالمسألة لم يعد ينحصر في الصعيد الجهوي بل يتموقع ، لأول وهلة ، على مستوى المغرب الكبير إن الأطروحة العلمية للوحدة اللغوية للأمازيغية تم تحويرها واستعادتها ونشرها مبكرا في منطقة القبائل . إذ أن الديباجات والمقدمات التي قام بها الرواد القبائليون منذ نهاية القرن التاسع عشر مجمعة على هذه النقطة تجلي ذلك في عبارات اختنالية جدا قد تثير شيئا ما اليوم فحل اللسني المتخصص في الأمازيغية .

فسيد كاوي ، المنحدر من منطقة بجاية (نجد بعض المعلومات عن هذا المتخصص في الأمازيغية والمعروف قليلا في مجلة دراسات ووثائق أمازيغية العدد ٢ ١٩٨٦) يكتب في ديباجة قاموسه الطوارقي سنة ١٨٩٤ ما يلي : "نسمى تماحق (تيماحق ، تماشيق أو تماشيغت) مختلف اللهجات الأمازيغية التي يتحدث بها إيموحاق ، إيموشاق إيموشار ، إيماحين ، إيمازيغن ؛ وبعبارة أخرى طوارق .

فمن وجهة نظر نحوية ، كل هذه اللهجات هي تقريبا كاللهجة القبائلية وككل اللهجات الأخرى لأفريقيا الشمالية لكنها تختلف من حيث العلم القاموس Lescicologie ، بالفعل ، فلهجات تماحق هي الأكثر نقاء أما الأخريات فقد تسربت اليها كلمات عربية . تماحق هي أيضا الوحيدة التي حافظت على نسق كتابة . أما النطق في لهجة تماحق فهو عينه في اللهجة القبائلية ..."

أما بوليفا فقد كتب في ديباجة سنة ١٩١٣ ما يلي :

" إن الإختلافات بين اللهجات المتعددة إذن ليست سوى إختلافات شكلية (...) فسواء سمي أشلحي أمازيغ أو أشاوي وسواء نعت بكونه ريفيا أو قبائليا . فان الكتابة وللأبجدية هي هي دائما واحدة في أي مكان ..."

وهي فكرة لها على أي جذور تاريخية وعلمية موغلة فأطروحة الوحدة اللغوية الأمازيغية مطروحة قبل الإستعمار بكثير : بحيث أن البحوث اللغوية كتلك التي قام بها Venture de Paradis (سنة ١٧٨٧ والمنشورة سنة ١٨٤٤) تعترف منذئذ يكون تشلحيت المغربية والقبائلية الجزائرية لهجتان للغة واحدة (الى الحد الذي أعد فيه قاموسا اخلط فيه بين المفردات الآتية من اللهجتين دون أي تمييز فليس للمتخصصين المحليين في الأمازيغية إذن إلا أن يستعيدوا لحسابهم الخاص فكرة جد منغرسة سلفا لكن وبالنسبة لهم . لايتعلق الأمر ببساطة بعريضة مبدئية . فكلهم اهتموا وعن قرب بلغة وثقافة المجموعات الأمازيغية الأخرى غير لغتهم وثقافتهم . فسيد كاوي ينشر القاموس الطوارقي (١٩٨٤-١٩٠٠) وقاموس تاشلحيت سنة ١٩٠٧) أما بوليفا فهو مؤلف احدى الدراسات المهمة الأولى حول أمازيغية الأطلس المغربي سنة ١٩٠٨ .

إن النظرة الى الذات والعمل الثقافي لم ينغلقا إذن في جهوية ضيقة . ولقد نما بموازاة ذلك توجه نحو جامعة أمازيغية : وهو توجه مافتىء يتأكد منذ تلك الفترة فالمتخصصون المحليون في الأمازيغية اشتغلوا كلهم . وبدرجات متفاوتة . على مناطق أخرى غير مناطقهم

إن هذا الميل حاضر أيضا في إنتاج أولئك الذين سميتهم بـ "المتمازغين الوطنيين" وأن هذا لم يدرك ويستعمل بعد . بشكل فعلي من طرف مؤرخي الوطنية الجزائرية . فعدد من الأناشيد الأمازيغية التي

صاغها مناضلون وطنيون قبائليون هي دعوات حقيقية الى "مغرب كبير أمازيغي" . وإن الإحالة الى اللغة الأمازيغية والوحدة الأمازيغية من سيوة (مصر) الى الصحراء الغربية (تاركا زك أغت) الى التاريخ الأمازيغي المحض . وبالأخص الما قبل إسلامي هي إحالات عديدة .

إن " المتمازغين الوطنيين " . وبشكل ملموس أكثر – وهذا كاشف عن الإندفاعات المضمرة - . هم السباقون الى فكرة الجامعة الأمازيغية من خلال عملية التجديد القاموسي انهم هم الأوائل الى الإقتباس من مناهل لهجات أمازيغية أخرى (طوارق . المغرب . المزاب ...) بهدف إثراء وعصرنة القاموس القبائلي فعدد من من الإصطلاحات السوسيوسياسية المحدثة والمدخلة في هذه بة الى القبائلية هي مجرد اقتباسات من لهجات أمازيغية أخرى .

إن الحالة الأكثر دلالة بهذا الخصوص هو الزوج : أمازيغ – تامازيغن "البربرية / لغة بربري) . إذ أن التعبير ذاك الذي هو أساسا مغربي كان مجهولا قبل ١٩٤٥ في الثقافة التقليدية القبائلية التي لم تكن تتوفر على أية كلمة لنعت اللغة الأمازيغية والأمازيغيون في كليتهم . وفي بعض عقود فقط . أصبح شائعا ومعتاد لدى جل الأمازيغيون قبائليون كانوا أو آخرين الذين لم يكونوا يعرفونه . فمن خلال تاريخ تسمية نستوعب السيرورة الملموسة لإنتاج مفهوم وهوية داعية لجامعة أمازيغية .

خلال العقدين الأخيرين أشتد الطابع أليان أمازيغي Panberbere في ميدان النيولوجيا (التجديد اللغوي) . إذ أن الطوارقية . وفي درجة ثانية تشلحيت استعملتا في (الأموال) المنجد الصغير المزدوج اللغة المتخصص في الكلمات الحديثة والتقنية المدخلة في القبائلية منذ ما يقرب من ١٥ سنة . نفس الشيء يقال عن الإصطلاحات العلمية

والتقنية التي هي في طور الإعداد (قاموس الرياضيات ، الجغرافيا ، المعمار ، البيولوجيا) ؛ وبعد أن ظل ذلك ولمدة طويلة ظاهرة قبائلية محضة ، فإنها طالت الآن المناطق الأمازيغية الأخرى . فالكثير من النيولوجيزمات (التعابير المحدثة) والتي راجت بفضل القبائليين تمت إستعادتها في أماكن أخرى وبالأخص بالمغرب وبلاد الطوارق .

يمكن أيضا أن نتبين توجها بأن أمازيغي على مستوى الخط . فبعد تعثرات طويلة ، تنحو طريقة الكتابة المتداولة للأمازيغية الى الإستقرار والتجانس تحت التأثير المحدد للأعمال والاستعمالات العلمية . إن الإدخال والتأويل الفوق - جهوي للمبدأ الفونولوجي سمح بإختزال ملحوظ للإختلافات على مستوى التمثيل الخطي للهجمات الأمازيغية . فالمميزات الطواتية اللهجية ذات الطابع النسقس أعتبرت كانجازات جهوية للفونيم "الأمازيغي" ، ولم تعد إذن منقطة أو فق من الناحية المادية ، يسمح هذا بكتابة اللغة بنفس الطريقة كيفما كانت اللهجة . سيكون لدينا إذن Tamghart = العجوز ABRID = الطريق سواء كنا طوارقيين أو من إشلحابي ، الذين ينطقونهما بالفعل هكذا (ABRID) ، (tamghart) أو بالقبائلية والريفية اللتان تنطقان هكذا Tamghart(أي بالتاء المعجومة (ABRID) ، حيث أن الباء تنطق ياءا والدال معجومة .

هكذا تبنى القبائليون ، إنطلاقا من ١٩٤٥ ؛ لكن وبالأخص منذ الإستقلال طريقة في الكتابة ذات إستلهام فويولوجي واسعة بل مورفولوجية متطابقة مع معطيات اللهجات الأخرى ، والتي تجعل كل نص مكتوب قابلا للفرز بسهولة من طرف كل أمازيغوفوني .

نرى إذن كيف أن أختيارات لسنية جد تقنية ظاهريا بالإمكان أن تكون لها آثار ودلالات سوسيولسنية واديولوجية كبيرة . فمن

خلال إختيارات في طريقة الكتابة أكد الرواد القبائليون في ميدان اللغة الأمازيغية مجددا على وحدة اللغة وعملوا على أن تكون واقعا ملموسا . إن طموحات مجتمع تختفي أحيانا وراء إختيار

فمن خلال عمل كتوم . لكن مسترسل أعطى المتخصصون في الأمازيغية والمناضلون الثقافيون القبائليون زخما واقعيا لفكرة شائعة في القبائل منذ مطلع هذا القرن .

المرور الى الكتابة :

إنه وبلا شك الإتجاه الأكثر قابلية للضبط والأكثر ديمومة منذ القدم لدى المتخصصين في الأمازيغية والمناضلين المحليين فمنذ بداية القرن ترجمت إرادة المرور الى الكتابة من خلال نشر متون أدبية مهمة أو نصوص حول الحياة اليومية يمكن اعتبار (بوليفا) كأول ناظم قبائلي للشعر الحر فكتابة (منهج اللغة القبائلية ١٩١٣) يتضمن أكثر من ٣٥٠ صفحة من النصوص الأمازيغية الغير المترجمة مكتوبة بخط يد الكاتب .

ترجع إذن الإندفاعة الأولى نحو المرور الى الكتابة بالقبائل الى بداية هذا القرن . في الميدان الأدبي بالأخص ، بدأت ركيزة المكتوب المطبوع تحل وبشكل دال ، محل التحاول الشفاهي والذاكرة الجماعية ؛ ذلك أن شروط إنتاج ونشر الأدبيات متأثرة بعمق بالتقلبات السوسيواقتصادية والسياسية التي تعرضت لها القبائل في النصف الأخير من القرن ١٩ . هكذا سيختفي شعراء الفخريات الشبه المحترفين والمتجولين بسرعة وسينهار النسيج القبلي الذي كان يتكفل بهذا الإنتاج الأدبي الإجتماعي . لقد ظهرت الأجيال الأولى من المعلمين القبائليين إذن في منعطف القرن ، في لحظة محورية جعلتهم في وضع مكنهم من ضمان العمق الضروري لتناقل التراث . نعرف بهذا

الصدد الدور الحاسم الذي لعبه ديوان بوليفا في الإحتفاظ وتناقل عمل الشاعر الكبير سي موحاند وعدد آخر من الشعراء القدامى وقد شهد على ذلك مولود فرعون بشكل مؤثر : "... نحتفظ به كزوج لذاكرة معرضة للنسيان . هو "كتاب " للقبائليين الشبان" (١٩٦٠-١١.)

سوف يمس هم تحديد ونشر خط أمازيغي قابل للإستعمال كذلك المناضلين السياسيين لحزب الشعب الجزائري والحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية . فقد أعد موحاند أمزيان أبجدية أمازيغية أصيلة منذ ١٩٣٠ ما بين ١٩٤٥ ، ١٩٥٠ سينكب كل أصحاب الأناشيد الوطنية الأمازيغية ، وبالأخص الأكثر انتاجا من بينهم ، كإديرا آيت عمرانError! Bookmark not defined. على هذه المشكلة وسيقترحون أنساقا في الكتابة بالحروف (اللاتينية) ماهرة بما فيه الكفاية ، والتي تكشف ، على أي ، تفكيرا وإخبارا لسنيين جادين (والذي يبقى أمر إرساء أشواطهما قائما).

حوالي ١٩٤٥ - ١٩٥٠ ن تقدم نشر المكتوب على أساس لاتيني . وبما فيه الكفاية وخارج كل تعليم مقنن بالقبائل ؛ الى الحد الذي أصبح فيه العديد من أفراد النخب المثقفة القبائلية قادرون على ترتيب وكتابة نص الأناشيد ("المتمازغون الوطنيون") وكذا نظم قطع من الشعر التقليدي . في خضم فورة مختلفة كتب بلعيد آيت سالم الذي لم يكن ذا ثقافة كبيرة (أنظر مجلة "دراسات ووثائق أمازيغية " العدد ٢ ١٩٨٦) ، وفي نفس الحقبة (أي قبل ١٩٥٠) ما يجب إعتباره أول عمل قبائلي مكتوب (دفاتر بلعيد) . يتعلق الأمر بعملية تدوين لنصوص ويتنقيطات ووصف وتأملات تخص القبائل ، كلها ثرية ولطيفة .(أنه نوع من العمل المبكر بالقبائلية إذا ما قورن " بـ أيام القبائل " لمولود فرعون) .

تتابعت حركة الإنتاج مع عودة قوية منذ ١٩٧٠ وموجودة الى الآن :

ترجمات : توضيب أمازيغي لأعمال عالمية أو مغاربية _بريخت ، موليير ، بيكيت ، كاتب ، فرعون ...)

أعمال أدبية أصيلة : قطع مسرحية (قبائل ، مغرب) دواوين شعرية (مغرب ، مزاب ، قبائل) وروايات (قبائل) .

محاولات تاريخية بل وحتى كتابات علمية (لغوية ورياضية) بالأمازيغية (قبائلية ، طوارقية) .

بإمكاننا ، من الآن فصاعدا الحديث عن أدب أمازيغي مكتوب . بالتأكيد لا زال متواضعا وفي طور التشكل ، لكن لا يجب أن نغفل عند تقويمنا له أنه ولد ونما في شروط غير لائقة تماما .

تخرج الأمازيغية إذن شيئا فشيئا من الشفاهية البحتة صحيح أن التطور قطع أشواطا مهمة بالقبائل لكنه ملاحظ أيضا بالمغرب وفي بقية المجال الأمازيغي فمناطق ظلت حتى الآن صامتة نسبيا بهذا الخصوص كالعالم الطوارقي أو المزابي بدأت تنخرط هي الأخرى في سيرورة مماثلة .إن الأمازيغيين الذين كانوا مندمجين في عهد ثقافة كتابة قديمة ، لاحظوا دائما أن لغتهم وثقافتهم قد انتقص وضع الشخامية من قيمتها ، وهي وضعية ترتب عنها في الحقبة المعاصرة رد فعل غرادوي يرمي الى البرهنة على أن "الأمازيغية تكتب" وأنه من الممكن أن توجد ثقافة أمازيغية مكتوبة .

هكذا يمكننا تفسير وجود تيار قوي داخل الحساسية الأمازيغية يدعو الى العودة الى الأبجدية الأمازيغية القديمة (تيفي ناغ) التي تمثل ايجابية مزدوجة : إثبات الإنتماء التاريخي – الذي لاجدال فيه

- للغة الأمازيغية لعالم الكتابة وضمان التميز الأقصى بالشبه للثقافات المحيطة بها على اعتبار ان هذه الأبجدية تخص الأمازيغيين بشكل مطلق .بإحيائهم لهذه الكتابة القديمة والتي خرجت من دائرة الإستعمال منذ قرون إلا عند الطوارق - يكون هؤلاء المناضلون الأمازيغيون قد أمدوا أنفسهم بسلاح فعال ، بوجه خاص ، داخل محيط وضعت فيه الكتابة في مرتبة الأسطورة ان لم نقل التقديس وحيث أن هذه الأبجدية الأمازيغية مشهود بصحتها منذ فجر التاريخ (على الأقل منذ القرن II قبل ميلاد المسيح)فإن الأمازيغيين يلجون بذلك التاريخ والحضارة قبل أغلب الشعوب التي سيطرت على المغرب الكبير وبالأخص العرب ! إن التيفيناغ تسمح للأمازيغيين بأن لايدرجوا بعد في سجل البرابرة والبدائيون الآخرون الذين لا بديل لهم سوى الذوبان في الثقافات "الكبيرة" (المكتوبة) وبالأخص العربية الإسلامية منها.

إن مقارنة مسألة الكتابة الأمازيغية هاته من طرف السلطات يستخلص منه جيدا منطق النزاع بين رغبة في إثبات الهوية وإستراتيجية ساعية الى الدمج والإختزال . فمنذ أن أصبحت مشكلة وضع اللغة الأمازيغية مسألة عمومية بالجزائر (١٩٨٠) ما فتئت المستويات الرسمية المعنية مباشرة بالموضوع (نقصد وزارة التعليم العالي ، الثقافة ، لجنة "ثقافة" التابعة للحزب) تضع بشكل لا يتبدل ولايتحول ، كشرط مسبق لكل تدريس للأمازيغية ، تبني الحروف العربية . فبالأحالة الى تيفيناغ (أو الى اللاتينية) يثبت المناضلون الأمازيغيين خصوصية وإستقلالية ثقافتهم بينما تجعل الأوساط الرسمية من الإنتماء الى "الأسرة العربية الإسلامية " مبدأ وشرطا أوليا . إنها إذن إرادة للإستقلالية تصطدم موازية في المراقبة والدمج في حظيرة الثقافة الرسمية .

إن هاذان العاملان ، فيما أعتقد ، (تاريخانية+خصوصية) هما اللذان يؤسسان ذلك الشغف بتيفيناغ ليس فقط في القبائل ولكن أيضا في مجموع المناطق الأمازيغوفونية وبالأخص في الأوساط الشعبية (قروية وعمالية) .

على أي إن البادىء بتيفيناغ الجديدة ومن الأكاديمية الأمازيغية هي تنظيم يستقطب أساسا في أوساط البروليتاريا والطلبة المنحدرين مباشرة من القبائل ، والذين لا زالت كل الارتباطات تشدهم بالعالم القروي .

التحديث

أقصد بذلك ذلك الجهد المتواصل من أجل تدوين اللغة والثقافة الأمازيغيتين في حقول من المرجعيات الحديثة ، علمية وكونية ، وذلك بهدف إخراجها من الدوائر التقليدية القروية والعائلية .

إستنادا على هذا الإتجاه ، سبق أعلاه ، أن طرحت جوانبا تقنية – نسبيا – كالمرور الى الكتابة والتجديد القاموسي ، إلا أنه ، وبشكل عام ، تنحو الثقافة الأمازيغية الجديدة والعمل الثقافي للمناضلين الأمازيغيين منذ ، على الأقل ، ١٩٤٥ الى أن تجعل من الأمازيغية وسيلة تعبير وخلق في إرتباط بتيارات الفكر الحديث والثقافة الكونية .

إن "المتمازغين الوطنيين" لـ ١٩٤٥ تأثروا ، بالغ التأثر ، بالتجارب الثورية والوطنية الأجنبية كالثورة الروسية والمقاومة الوطنية الإيرلندية والتقاليد الوطنية الأوروبية للقرن ١٩ . فلقد تمت ترجمة "الأمية" الأشعار الرومانسية الألمانية = (Uhland , Jch hatte einen) . تقول الترجمة القبائلية لهذه العبارة (Ghuri Yiwer Umeddak el ...) يتأثر توضيب القبائلية مع براخت ، بيكيت ، موليير ، وتنشر أدوات

ديداكتيكية باللغة الأمازيغية في ميادين أخرى جد متخصصة : (نحو قبائلي بالأمازيغية ، معمري ١٩٧٦) كما أن هناك مجموعات جامعية قبائلية عديدة تعمل حاليا على إعداد قواميس علمية ، وستحرر " رياضيات " بالقبائلية . إن لهذه التجارب هي ذات طبيعة متعددة ، بما فيه الكفاية ، وليس لها جميعها نفس الحمولة . إلا أنها تلتقي عند إرادة دمج اللغة والثقافة الأمازيغيتين في الحداثة ، وتملك العناصر الأساسية للتراث التاريخي والثقافي والعلمي والكوني .

إننا نلتقي هنا مع سمة طابعة لـ "الحساسية الأمازيغية" الجزائرية في كليتها . أكيد أنه لا زال هنالك "ثقافيون" و "سياسيون" أكيد أن هنالك جمع من المقاربات والمواقف ، لكن المرجعيات الايديولوجية القاعدية هي نفسها لدى الجميع فلاأعتقد أن بوسعنا للتمييز جذريا بين الإستلهامات . إن التطورات والإلتزامات المختلفة لهؤلاء وأولئك ترجع أساسا الى النفسية ، الصدف والتواريخ العائلية وتحديدات أخرى فردية أكثر مما ترجع الى إختلافات عميقة في التصورات .

أكاد أسحب هذا الإثبات على كل النخب القبائلي بما فيها الوطنيون (هكذا بطبيعة الحال ، في صيغة الإتجاه العام ، إذ هنالك استثناءات ملحوظة !) إن علمانيتهم الطاغية والقديمة (إتيكيت قدحية: "الأمازيغي المادي" ترجع الى بداية الخمسينات) ، وكذا تصورهم الغربي للدولة .. كل هذا يكشف عن معالم ايديولوجيا ملتبسة ونفس المحددات السوسيو-تاريخية.

إن التقاليد السوسيو سياسية الأمازيغية :" الإستقلال القبائلي" الإستقلالية والديمقراطية القروية التي استصغرها محمد حربي (١٩٨٤) بشكل خطير نضيف الى ذلك المثاقفة الغربية العميقة

والقديمة بالقبائل في كل الشرائح الإجتماعية، نقول إن كل هذه العناصر تحدد ، حتى الآن خصوصية قوية في الحقل السوسيو-ثقافي والسياسي الجزائري

ثقافة إحتجاجية

إن الثقافة الأمازيغية – المقصاة منذ قرون من دوائر الحكم والدولة المركزية التي كان الأمازيغيون في صراع شبه دائم معها – تجر وراءها تقليدا في المقاومة والإنشقاق موغلان في القدم حديثا لم يعمل هذا المعطى الأساسي – الذي يحدد المشهد الثقافي البعيد جدا للمرجعية العربية الإسلامية الارثوذكسية الحضرية – قلت لم يعمل هذا المعطى الا على التصعيد من هذه الوضعية . فبحكم السياق الثقافي والسياسي ، أن يغني أن تتحدث في الملأ أو تكتب بالأمازيغية هو في حد ذاتها التزام . يترتب عن ذلك أن الثقافة الأمازيغية الجديدة هي ، بشكل عام ، ذات إيقاع جد نقدي ، إذ نجد فيها آثارا لكل المعارك الراهنة والحالية : مقاومة المستعمر ، النقد الإجتماعي والسياسي ، إثبات الهوية ، نقد الدين والتعريب ، معاداة العسكرتارية ، (ترجمت وغنيت قطعة le deserteur) لصاحبها بوريس فبان الى القبائلية) ، مطالبة نسوانية .

إن الإقصاء الرسمي دفع بالإبداع الأمازيغي الى النمو في الغالب ، خارج الأطر الرسمية . فقد حصل على إستقلالية كبيرة بالنسبة للإيديولوجيا والثقافة الرسميتين . لقد شكلت الثقافة الأمازيغية بالجزائر ، منذ الإستقلال ، فضاء حرية تم غزوة وملجأ ومرتكزا للتفكير اللامتثالي أو الإنشقاقي . إن قوله (لوي جان كالفي) سنة ١٩٧٤ ، تصف جيدا ، بوجه خاص ، الوضعية الأمازيغية : " إن اللغة هي بمثابة مخبأ للشعب "! إن درجة العنف الذي بلغة نقد السلطة

السياسية وممارستها . القمع . الدين الرسمي في الأغنية والأدب القبائليين الحديثين . أكاد أقول أنها ليست قابلة حتى للتصور في الإنتاج باللغة العربية أو الفرنسية . يكمن أساس الأغنية القبائلية في نقد أسس الدولة الجزائرية نفسها . وتكفي بعض العناوين المأخوذة من جرد للمغنيين الأساسيين وواضعي الكلمات لتبيان ذلك :

-فرحات :

+ بريزيدان(le president) (كلمات موحاند ويحيا)

من شأن هذه الأغنية أن تؤدي بصاحبها الى إتهام قانوني بالتشهير برئيس الدولة .حتى في دولة ديمقراطية .

+ أمزارتي : (الهارب من الجندية)

+ تامازيغت (اللغة الأمازيغية)

+ آضو (ريح الحرية)

+ ٢٠ إسكاسن آيا (٢٠ سنة من الديكتاتورية)

+ تاكراولا : (الثورة)

- إيدير :

+ تيغري نوكدود (نداء الشعب)

+ موقلغ (أتملى تاريخ الأمازيغ)

+ أشاوي (الأمازيغي من جبال الأوراس)

- آيت منكلات :

+ أسكوطي (boy scout)

+ إيطس إيطس (نم . استمر في النوم (اوفيون الشعوب)

- بن موحماد*

+ شفو أيخفو (تذكر تلك (المعارك)

+ يوواس (في يوم من الأيام (الثأر)

- حتى المجموعة النسائية (دجرجرة) غنت :

+ دريا ومازيغ (الشباب الأمازيغي)
+ تيليلي (حرية)
+ تاقبايليت (فتاة من القبائل)
+ مرحبا يسم أتاقشيشت (مرحبابك ايتها الفتاة الصغيرة)

إن السلطات لم تنخدع لما أحالت الى القضاء مغنيين كـ فرحات (المحكوم عليه ثلاث سنوات سجنا من طرف مجلس أمن الدولة في دجنبر ١٩٨٥) و آيت مكلات (المحكوم بنسنتين سجنا سجنا مع وقف التنفيذ)

في المحصلة ، يبدو أن الخاصية الأساسية والدائمة للهوية الأمازيغية المتقمصة والمشيدة تتبدى كقطيعة مع النموذج العربي - الإسلامي ولقد عملت الحركة البطيئة لتسييس "الحساسية الأمازيغية" بالأحرى على تقوية هذه المعارضة ، وذلك بتوسيعها لتشمل ميادينا أخرى كالعلاقة بالدين وتصور الدولة والعلاقة بين الدولة والمجتمع .

فمن خلال مواقفه الصريحة ، كما من خلال الخطوط الكبرى لعملية المنصب على اللغة والثقافة ، رسم التيار الأمازيغي مشروع مجتمع على النقيض مما تفترضه المرجعية العربية الإسلامية في ما يتعلق بكل الموضوعات الكبرى : كاللغة (الأمازيغية / العربية) ، الهوية التاريخية للمغرب الكبير (الإستمرارية الأمازيغية /ذوبان في الجماعة العربية الإسلامية) الثقافة (تراث شعبي /الإرث الكلاسيكي) ، العلاقة بالتقليد وبالحداثة ، السلطة الدين ، الحكم ، بل وحتى على مستوى مادي لكن، جد رمزي ، أي مستوى الأبجدية تيفيناغ او اللاتينية /العربية .

باستنادها أساسا على الإحالة الى اللغة ، فإن سيرورة بناء الهوية الأمازيغية بالقبائل تنزع ، منذ بداية القرن الى تأسيس في مواجهة نزعة عربية اسلامية ذات ميل توتاليتاري - صورة عن الذات وفضاء ثقافيين مستقلين محددين من خلال مرجعيات مغاربية ، بشكل خاص ، وتوجه حداثوي مصيم وعاقد العزم .

والحالة هذه ، فإن الأشكال السائدة حاليا للنزعة العربية الإسلامية لايمكنها أن تكون متسامحة مع وجود الآخر في ما تعتبره كمدار لها . لن يكون بمقدورها أن تقدر له منظورا آخر سوى الإختفاء وذلك من خلال الإحتواء . والعاقبة السياسية المباشرة لهذا هي عجز النظام الجزائري عن تطوير مقاربة متفاوض عليها بالضرورة ومعترفة بمشروعية الآخر - لمسألة اللغة والثقافة الأمازيغيتين .

إن علاقة التحفظ التي تعهدها الحكم منذ الإستقلال مع القبائل المنطقة التي بوسعة اعتبارها ، في نظرة وبشكل مشروع بما فيه الكفاية ، كمنطقة غير مضمونة بالنسبة له - أقول إن علاقة كهذه يترتب عندها - مباشرة - كونه خصص لها تعاملا من نوع خاص يتعاقب فيه ، منذ ربع قرن ، التهديد القمع المفتوح (من خلال مضاعفة اعداد المعاهد الإسلامية وعمل يومي دؤوب من أجل التعريب و"الأسلمة" من خلال الإذاعة) وعمليات التجميل الهادفة الى تحييدها :

كراسي موازية ، برامج خاصة لتنمية ، زيارات رمزية ... الكل يتم على أساس من مقاييس هدفها هو الحيلولة دون تجدر كينونة قبائلية . وأكثر هذه بروزا يتمثل في التقطيعات الإدارية ، والتقطيعات الإدارية المعادة التي تجزأ القبائل الى عدد متزايد من الولايات (ليس هنالك حاليا أقل من خمس ولايات!)

لكن . أيضا من خلال الإيقاف الفجائي لعملية إنماء المركز الجامعي لتيزي ووزو بعد ١٩٨٠ . لم يعد من الوارد السماح بتشكل قطب ثقافي كبير في القبائل ذاتها . والذي سيصبح – لامحالة – العصب لاحتجاج له جذور تاريخية موغلة في العمق وقاعدة سوسيولوجية واسعة .

القواعد الإجتماعية للنزعة الأمازيغية
نقد أسطورة

تروج منذ مدة طويلة فكرة عنيدة ومتعددة الأشكال في قطاعات عدة للرأي الثقافي المغاربي والغربي بخصوص القواعد الإجتماعية للمطالبة الأمازيغية فكرة مفادها أن هناك رابطة وثيقة بين إثبات الهوية و "النخب" القبائلية . سأتحدث هنا – للضرورة الإصطلاحية - عن " النزعة الأمازيغية" دون إعطاء هذه التسمية والتيار الذي يمثلها ، إنعطافات إيديولوجية أو عضوية جد دقيقة لم تكن لها أبدا على مستوى الواقع .

بإختلاف الحقب والمصادر ، تأخذ هذه الأطروحة أشكالا لصياغات متعددة . فالبعض يربط بين " النزعة الأمازيغية" وأهمية النخب المفكرة القبائلية ذات التكوين الفرنسي . نجد هذه الفكرة ممثلة جيدا في الوسط الفرنسي للعلوم الإجتماعية ، والبعض الآخر يربط "النزعة الأمازيغية " بوزن النخب الإقتصادية القبائلية ، وبالضبط "البرجوازية" التجارية والمقاولة في هذه المنطقة . تصادف هذه الفكرة تحت أشكال خطاطية ، بوجه خاص ، في الخطاب الشيوعي والمتمركس .

وأخيرا يقيم آخرون علاقة بين النزعة الأمازيغية والنخب التكنوبيروقراطية القبائلية والممثلة بشكل زائد عن الحد وتقليدي في نفس الوقت ، في جهاز الدولة الجزائرية .

كيفما كانت " التنويعة " ، فإن الأطروحة المركزية تتمثل في

الإقرار بوجود علاقة أساسية بين واقعة سوسيولوجية وبروز المطالبة بالهوية الأمازيغية بالقبائل فالنزعة الأمازيغية ليست أساسا تطلعا شعبيا واسعا وعميقا. حركة إثنية بل تعبيرا اديولوجيا ثم سياسيا عن الشرائع العليا للمجتمع القبائلي .

يستند إستدلال كهذا في الغالب لدى مؤلفين عارفين أكثر بالميدان المغاربي . على المقارنة بين القبائل والمناطق الأمازيغية الأخرى . فـ "النزعة الأمازيغية " ليست قوة ذات دلالة إلا في القبائل . أما المناطق الأمازيغوفونية الأخرى كـ الأوراس مثلا . وبالأخص المغرب حيث تتمركز جماهير أمازيغوفونية كثيرة ليست (أو هي كذلك بشكل ضعيف) حساسة تجاه هذا التيار . يرى الملاحظون في ذلك دليلا على انحصار لها في منطقة القبائل . والتي يحددونها بطبيعة الحال - الحتمية الميكانيكية لها كلمتها هذا - على مستوى البنية السوسيو اقتصادية للمنطقة . وتكون الخلاصة إذن كالآتي : إذا كانت النزعة الأمازيغية قد تنامت بالقبائل وليس في مكان آخر خارجها . فلأن هذه المنطقة شهدت منذ بداية القرن تناميا قويا للشرائح المتوسطة (مثقفون / تكنوبيروقراطية / مهن حرة) و"بورجوازيات" (تجار ومقاولون) .

يتم الدفع أحيانا بآلية التحديث السوسيواقتصادي الى حدها الأقصى . ولا يتردد البعض في القول بأن البروز الفجائي للمطالبة الأمازيغية . إنطلاقا من ١٩٨٠ . كان بمثابة ردة فعل هادفة الى الدفاع عن التكنوبيروقراطية القبائلية الفرانكوفونية المهيمنة (؟) في جهاز الدولة . والتي كان وضعها مهددا - منذ ذلك الحين - وبشكل مباشر - من طرف جيش زاحف من النخب المعربة .

ترد أذن التكنوبيروقراطية - ذات الأصل القبائلي - على هذا

الخطر بإستنادها على تميزها الأمازيغي ؛ وهو الوحيد القادر لكونه ذا مشروعية وطنية وتاريخية - على الوقوف في وجه موجة التعريب ، وبشكل عام ، في وجه النزعة العربية الإسلامية الصاعدة .

تكون "النزعة الأمازيغية " إذن محض "تحويل" Transfert لمصالح النخب الفرانكوفونية القبائلية .

هنالك "تنويعة" أكثر جدية يدافع عنها بشكل ماجيوسترالي ، الإنجليزي (هـروبرتز) (انظر البيبليوغرافيا)؛ والذي يرى بأن المستوى المحدد إقتصادي اساسا . فالقبائل ، وبحكم تاريخها الحديث - وبالأخص الهجرة القروية - أنمت " برجوازية " مكونة من التجار والمقاولين (الإصطلاح هذا لروبيرتز) مهمة وواعية بذاتها. هذا الوعي بالذات الخاص بالبرجوازية القبائلية له جذور في التميز الثقافي واللغوي الأمازيغيين ، وكذا وجود نسيج جد كثيف من المبادلات الخاصة بالقبائل ومناهضة معينة للإختيار "الإشتراكي" (في الواقع دولاتي) للحكم الجزائري منذ الإستقلال .

إن عارفا بخبايا الإقتصاد والمجتمع الجزائريين كروبرتز يعرف ويعترف بأن "البرجوازية" التجارية والمقاولة ليست حصرا على القبائل وحدها ؛ إذ أن مجموعات مثيلة ، وعلى الأقل مهمة بالقدر نفسه توجد في مناطق أخرى بالجزائر (الجزائر العاصمة ، قسطنطينة ، تلمسان ، المزاب) لكن الإختلاف الحاسم يأتي من الأهمية النسبية لهذه الشريحة وقدمها بالقبائل ، وبالأخص إنتماؤها لميدان ثقافي خاص أي أمازيغي . يرى روبرتز أن هذا الوعي تسارع ، بقوة ، بمناسبة حرب التحرير التي عرفت مشاركة مكثفة وحاسمة للقبائل في إطار المقاومة التي أضطلعوا بها والتمثيل القوي جدا للقبائليين في التأطير الوطني . إنطلاقا من ١٩٥٧ ، ساهم ، وبشكل قوي كل من إغتيال عبان رمضان من طرف بني

جلدته ثم الإختفاء التدريجي للقادة الوطنيين القبائليين الرئيسيين ؛ أقول ساهم هذان الحدثان في بلورة وولادة وعي وطني قبائلي . يتعلق الأمر بهذا بالضبط بالنسبة لروبرتز ويكون "البورجوازية" القبائلية هي قلب هذه الهوية الجديدة .

نتبين أن التحليل عند روبرتز يستند على معرفة معمقة بالواقع السوسيواقتصادي للقبائل وتاريخها الحديث . أنه يمتاز بإيجابية واسعة ونادرة تتمثل في دمج – وضمن رؤية شاملة – للمستويات والمجالات التي تبقى منفصلة عن بعضها البعض لدى أغلب المتخصصين في شؤون المغرب الكبير التاريخ ، الثقافة ، والإقتصاد والسياسة .

ومع ذلك ، فتحت أشكالها المبتذلة والميكانيكية – النموذجية ، منذ الأوساط "التقدمية " حتى الماركسية الإبتدائية ؛ أو تحت شكل أكثر تقدما وقابلا للإحترام ، كما هو الشأن عند (روبرتز) ، فإن هذه الأطروحة ، أو بدقة أكثر ، هذه الأسرة من الإطروحات ، لاتصمد أمام النقد والمواجهة مع المعطيات التاريخية ، الإجتماعية والسياسية الواقعية .

تصدر كل هذه المقارنات ، وبدرجات متفاوتة ، عن منطق إزاحة القناع من خلال التجليات الظاهرة ، عن الإندفاعات والمصالح الواقعية الفعلية الفاعلة في المجتمعات سواء كان الفاعلون لها واعون بها أو لا . إنها تثير، في البدء ، مشكلة نظرية ، بديهية ، إنها مشكلة مدى صلاحية ، الإستدلالات والتفاسير الحتمية بخصوص مسائل الإيديولوجيا والسياسة .

من جهتي ، فأنا جد مقتنع بالإستقلالية الكبيرة ، بل لا عقلانية هذه المستويات بالنسبة ، للمستوى السوسيو-اقتصادي ليس معنى ذلك أننا لانستطيع أن نتبين فيها تدخلات ، التقاءات ،

لكنها تبدو عشوائية بما فيه الكفاية ، وكيفما كان الحال ، أكثر تعقدا والتواء من علاقة سببية محضة بين "المصلحة السوسيو اقتصادي" والايديولوجيا .

لكن هاهنا نقاش واسع يتجاوز ، في آن واحد ، مؤهلات وإطار المسألة الدقيقة التي تشغلنا هنا ، سأرجع اليها، على أي ، وفي عجالة في الخاتمة .

إن الضعف الكبير لهذه المقاربات – على مستوى الوقائع – يتمثل في محاولة الفهم انطلاقا من معرفة مبتسرة غير مباشرة مشوهه و أو تقريبية لحركة الهوية الأمازيغية وبالواقع السوسو-السياسي القبائلي . صحيح أنه ليس من السهل التخلص – بالقدر الذي نتمناه البصفاة التي تشكلها الاكليشيهات الرائجة أحيانا منذ عقود، والتي تستمر الصحافة الرسمية في تعهدها ، وكذا قطاعات هامة من الأوساط الثقافية والبحث العلمي والحزب الوحيد (جبهة التحرير الوطني) ومصالح الأمن .

في الواقع ، إن محاولات التفسير والفهم لظاهرة (حركة الهوية الأمازيغية بالقبائل) – ولأن كانت معززة بالحجج ليست سوى تشكلا لأساطير عديدة – سيكون من الأهمية بمكان معرفة ، وبدقة ، من ينتجها ، ينظر لها ولماذا . أساطير مستندة على إثباتات مجانية ، تعميمات متهورة قائمة على ملاحظات صالونية ، وفي أحسن الحالات على إدراك خارجي مقطوع عن واقع الحركة الأمازيغية .

لن أناقش هنا المعطيات السوسيولوجية والإقتصادية التي هي في منطلق هذه الأطروحات . يرد على ذلك أنه الأوان للقطع مع الإثباتات المتسرعة التي لا تستند على أرقام . إذا أخذنا في الحسبان كثافة الساكنة ، فهل هناك ، فعلا ، نسبة أكثر ارتفاعا من المثقفين

في الوسط القبائلي بالنسبة للأوساط الأخرى ؟ أليست الوضعية بالقبائل قابلة للمقارنة ، في المحصلة ، وبما فيه الكفاية ، مع ما يمكننا مصادفته في تلمسان ، قسطنطينة أو الجزائر العاصمة ؟ يمكننا طرح نفس السؤال بخصوص التكنوبيروقراطية ، أو "البرجوازية" التجارية والمقاولة . إذا رجعنا الى المعطيات الديمغرافية ، فهل هاتان الفئتان ممثلتان ، بشكل زائد عن الحد ، في الوسط القبائلي ؟ يبدو أن هذا مشكوك فيه ، وعلى أية حال غير مؤسس بشكل جاد . إننا ننتظر دائما دراسات مقارنة مع المناطق الشمالية بالجزائر ذات الساكنة القوية الكثافة .

من جهتي ، لن أجيز كأشياء غير قابلة للنقاش ، وخاصة بالقبائل ، سوى سمتين مميزتين :

- أهمية وقدم الهجرة نحو فرنسا والتي نجمت عنها مثاقفة غربية في كل شرائح المجتمع القبائلي.

- وحدة القبائل اللغوية والثقافية .

بشكل قبلي إذن نقر بما يلي : ليس وجود نخب مفكرة أو إقتصادية - أتت متأخراً - هو الذي يحدد الشخصية الإيديولوجية والسياسية للقبائل ؛ بل أساسا بعدها الثقافي وتاريخها الحديث ، هذان - اللذان يعطيانها وجهها الخص .

هذا ما يجيزه - على أي - (هـ - روبرتز) عندما أعترف بأن العامل الحاسم في تشكيل الوعي القومي القبائلي ذو طبيعة ثقافية ، والمعطيات السوسيولوجية والإقتصادية ليست سوى "عوارضا" ربما شجعتها أو قوتها، لكن لم تخلقها من عدم ولن تفسرها .

لكن ، لنجز - جدلا - أن القبائل لها ، فعليا ، نخباً فكرية

واقتصادية كبيرة ، بشكل مطرد ، بالنسبة لخارج القبائل . لنجز صحة هذه المقدمات الايديولوجية .لكن ، هلا أقمنا ، وبنفس القدر ، رابطا تفسيريا بين وجود هذه النخب وظهور "النزعة الأمازيغية" ؟ ألا نمر - شيئا ما وبسرعة - من طور المعاينة السوسيولوجية الى طور التحليل التاريخي والايديولوجي والسياسي ؟

بعض التدقيقات حول تاريخ القواعد الإجتماعية للنزعة الأمازيغية قبل صياغة خلاصات حول الطبيعة الإجتماعية للحركة الأمازيغية ، تفرض علينا إحدى الاحترازات الأولى التحقق عبر التاريخ الحديث والتطورات الحالية من نوع الفئات الاجتماعية المنخرطة فيها بالضبط ومن الفاعلين الاساسيين بداخلها .

نعرف تماما بأن هذه المقاربة "الميدانية" لن تكون - بالنظر للشروط السياسية العامة (قمع ، سرية ...) سهلة التطبيق من طرف محللين خارجين أو أجانب ؛ إلا أنه من حقنا أن ننتظر تريثا أكبر في الصياغات قبل تحقق مقاربة من هذا النوع .

هذا في الوقت الذي يوجد فيه رغم كل شيء وعلى الأقل منذ ١٩٤٢ منطلقات موضوعية قابلة للضبط ، تسمح لنا بالإلمام بدرجة الإنغراس الفعلي للنزعة الأمازيغية .

فمنذ تمظهراتها الأولى القابلة للضبط في الحقل السياسي حتى الفترة الحديثة ، تعاين أن الفئات التي تصدر "النزعة الأمازيغية" هي كالآتي :

مجموعات تمثل أقليات قليلة من المثقفين .

الطبقات الشعبية من عمال محليين ومهاجرين وقرويين وكذا شرائح دنيا من البرجوازية الصغرى .

لقد كان الفاعلون الأساسيون في أزمة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ وهي الصيغة الأولى للمطالبة بالهوية الأمازيغية في إطار سياسي عبارة عن جماعة جد محرومة من المثقفين القبائليين الشباب ، وكان مرتكزها الإجتماعي الأساسي متمثلا في الهجرة القبائلية بفرنسا .

أماا التكفل المستقل باللغة والثقافة الأمازيغيتين وتقوية التيار الامازيغي ما بين ١٩٦٥-١٩٨٠ فكان من عمل الشبان في الغالب المثقفين القبائلين (طلبة وحتى تلاميذ الثانويات) مع إنغراس قوي بأرض المهجر . أما الأكاديمية الأمازيغية بباريز - وهي إحدى الفاعلين الأساسيين في عملية تبلور الوعي بالهوية في منعطف السبعينات - فكانت تستقطب أساسا بالوسط الطلابي .

في ١٩٨٠ - ٨١ ، تم تخميس التعبئة بالقبائل من طرف أوساط مفكرة محدودة أساسا حول جامعة ومستشفى تيزي ووزو ، والتي التحق بها ، بسرعة جمهور كبير من الساكنة العمالية والقروية على صعيد القبائلي منها ، بما في ذلك المناطق ذات التطور الحضري الضعيف . فكل الوحدات الصناعية بالقبائل شاركت بكثافة في موجة الإحتجاج وتحمل العالم القروي في كل مكان المواجهة مع قوى الأمن .

لقد حصل إقرار بهذه المعطيات ، وبمافيه الكفاية ، حتى في شهادات الصحافة الرسمية (أنظر بهذا الصدد مجموع المتن الصحفي المدون بتافسوت إمازيغن ، ١٩٨١) . ولن يكون من الضروري التوقف طويلا عند رفض عدد من الملاحظين الأجانب إختزال الحركة الى مجرد "إحتجاج لمثقفين وجامعيين فرانكوفونيين من القبائل الكبرى " .

هنالك مؤشر دقيق وموضوعي - والذي تم مع ذلك وعلى العموم تجاهله . متمثل في البروفيل (الملمح) السوسيولوجي للأشخاص

الموقو بالقبائل منذ ١٩٨٠ . إن تفكيري لا يتجه - بهذا الخصوص - حتى الى أولئك الأشخاص الكثيرين الذين تم إستدعاؤهم بمناسبة المظاهرات والمصادمات العديدة بالقبائل أو بالجزائر العاصمة . لا أطرح هنا سوى تلك الاتهامات التي هي "شكلا مصاغة على أحسن مايرام" (يقصد محبوكة جيدا - المترجم) والتي فيها ما أدى الى محاكمات وفيها مالم يؤدي الى ذلك .

ففي سنة ١٩٨٧ . تجاوز الرقم بالتمام ٣٠٠ شخص (من القبائل الكبرى والصغرى والجزائر العاصمة) هذه الساكنة "الجانبة" مكونة بشكل خاص من :

+ تلاميذ ثانويات وطلبة في مقتبل العمر ينحدرون أساسا من العالم القروي . وحقل تكوينهم . بشكل كامل . داخل النسق التربوي الجزائري.

+ عمال وتقنيون .

+ موظفون صغار وأجراء تابعون للقطاع العام .

+ بعض الأطباء والشباب (والمستوعبين) في القطاع العام .

+ بعض الشباب الجامعي .

لا نجد من بين هؤلاء أي تكنوقراطي . أي "برجوازي " ؛ وعمليا أي جامعي يقعد له ومعروف .

أين هو إذن . سواء على مستوى دينامية ترقي اللغة والثقافة الأمازيغيتيين . أو في حلقات الصراعات المفتوحة (١٩٤٩-١٩٨٠...) جمهور المثقفين . التكنوبيروقراطية و "البورجوازية" القبائلية ؟

أكيد أنهم ليسوا موجودين . لا على جبهة الصراعات ولا في ميدان الانخراطات السياسية . ولئن كانوا كذلك لتبيانهم .

في الواقع ، وعلى العموم ، كل هذه الفئات غائبة عن الحركة المطلبية الأمازيغية . لنكن دقيقين : إنني لا أنفي تواجد تعاطف ما مع الفكرة الأمازيغية في هذه الأوساط ، بل وحالات من الإنخراط الفردي الفعلي وتضامنات عارضة، لكن وكجماعة سوسيولوجية ، يمكننا القول أن هذه الأوساط ليست ، بأي شكل من الأشكال ، حاملة للإثبات الهويتي الأمازيغي . إن النخب القبائلية ، وهي موزعة بين أصلها الأثنوثقافي ومعالجها المادية المرتبطة بنشاطاتها داخل أو حول جهاز الدولة ، هي ككل النخب الجزائرية في وضعية تتطلع فيها ، باستمرار ، الى معجزة "إنفتاح" سياسي و أو إقتصادي يجود به الحكم ..إن نخبنا (مفكرة ، تكنوبيروقراطية أو "برجوازية") تابعة كثيرا للدولة المركزية في ما يخص إعادة إنتاج المواقف بحيث لا تجازف ، بسهولة ، بإحداث قطيعة ، ولو إيديولوجية - والإنخراط الميداني في العمل النضالي الأمازيغي ، الكل يعرف أن الطريق محفوفة بالمخاطر والمخرج غير أكيد .

بعبارة أخرى ، يمكننا أن نؤكد أن الحركة الأمازيغية لم تنجح ، لحد الآن في خلخلة النخب القبائلية ، بشكل دال ، لدفعها الى ميدان الإنخراط السياسي أو الثقافي الأمازيغي . فالمطالبة بالهوية يبقى من فعل الأجيال الشابة وبعض المثقفين الذين هم بالأحرى معزولين وكذا الفئات الشعبية .

إننا نستطيع - لربما - موقعة الضعف الأساسي ومحدودية الحركة الأمازيغية هاهنا بالذات : عدم التمكن من إشراك "النخب" في صراعها .

أما نظام الحكم فلا ينخدع ؛ إذ أن (نسبية) الإعتدال والتريث في قمعه المسلط على الأمازيغية منذ ١٩٨٠ يفسران بدءا ، بكون السلطات واعية تمام الوعي بالرسوخ الشعبي العميق للمطالبة

التي ليست مقصورة على "النخب" تلك التي يمكن عزلها بسهولة ، وبكونها كذلك عارفة بأن كل قمع طائش وكثيف بإمكانه أن يؤدي الى :

+ وضعية صعبة المراقبة بالقبائل.

+ تمزق لا رجعة فيه لربما في النسيج الوطني وتجذير المطالبة التي يمكنها ، في ثمة أن تأخذ أشكالا لمقاومة قومية ؛

+ التجاوز الكلي أو "الجزئي" للدور المزعوم "للنخب" القبائلية في "الفتنة" ؛ أكيد أنه يخشى أيضا وأكثر من ذلك كله على سمعته الدولية .

على أي يمكننا أن نذهب أبعد من ذلك . عموما ، تشكل نخبنا في الوقت الحاضر عائقا أمام تقدم المطالبة . فقد تمكن الحكم الجزائري ، بإعتماده عليها ولازال يتمكن ، من مراقبة الوضعية بالقبائل والقيام بعملياته التي تشمل القمع، الإغراء واتضليل . يجب ألا ننسى أنه ، وفي هذه الأوساط يستقطب الحكم ، وبإنتظام ، ما تسميه الحكمه "قبائليو الخدمة" عندما يقوم نظام الحكم بعملية إستيطان قبائلية داخل جهاز الدولة، يكون بذلك قد أستعان بالمدافعين عنه وخدامه الأكثر حماسا والأشد فعالية . فالمعربون الأكثر تحمسا للتعريب هم في الغالب قبائليون . أما بالنسبة لأجهزة الأمن (مدنية وعسكرية" فالكل يعرف أن هيكلتها - ولمدة طويلة - كان على رأسها قبائليون . وهي أمور ، ترسم ، على أي وضعية كلاسيكية - بما فيه الكفاية - في كل البقاع .. ففي كل مكان ، تنمي الأقليات الإثنية بالنسبة للدولة المركزية من جهة ، تيارا إنشقاقيا ، ومن جهة أخرى تيارا متعاونا ، وفي الغالب ذي توجه قمعي .

في الواضع الحالي للأشياء ، تصلح النخب القبائلية كحاجز مخفف من غلواء المطالبة الأمازيغية . لها إذن دور سلبي أساسا . نحن

أبعد مانكون - هذا ما نلحظه - عن "النزعة الأمازيغية " ذلك التعبير الايديولوجي للنخب القبائلية، بل نحن على النقيض تماما من ذلك .

بطبيعة الحال . فالأشياء قابلة للتغيير ، وهاهنا رهان أساسي ذي أهمية كبيرة بالجزائر ، ومستقبل المطالبة الأمازيغية سيتوقف ، في جزء كبير منه على تطور هذه النخب .

أكيد أنه يمكن تدقيق هذا التحليل . فيتعين علينا - على الأرجح - القيام بتمييزات بين مختلف المكونات في ماسميناه "النخب القبائلية" . فليس لها جميعها نفس العلاقة بالدولة ولا بالقبائل وبالانتماء الأمازيغي الأكثر تجذرا منها بالمنطقة وفي الثقافة الأمازيغية هي ، بالتأكيد "البورجوازية" التجارية والمقاولة (وهو ما يؤكد سداد تحليلات روبرتز) ؛ والأكثر بعدا هي التكنوبيروقراطية العليا والمثقفون . لكن تطور هذان المكونان له حظوظ كبيرة في أن يتغير .

إن التكنوبيروقراطية العليا و أغلبية المثقفين ذوي الأصل القبائلي هم الأكثر بعدا عن النزعة الأمازيغية ، هذا بلغة الجماعات لا بلغة الأفراد بطبيعة الحال . إن المجتمع النموذجي بالنسبة للتكنوبيروقراطية أجنبي تماما عن الثقافة الأمازيغية . إنه يتجسد في الدولة الحديثة المصنعة والعلمية ، تلك التي تدير بوجهها صوب الغرب مع الكفاءة التقنية كمكيال كوني .

أما بالنسبة لمثقفينا الذين هم عديدون ولا معون (فلقد بلغوا في الغالب شأوا عالميا) فانهم - مع إستثناء ات قليلة - مدافعون عن كل القضايا باستثناء الإنتماء الأمازيغي . وهو ميل ، هاهنا أيضا ، يصادف بما فيه الكفاية ، لدى أغلب المثقفين المنحدرين من الجماعات التي تشكل أقليات أو الجماعات الخاضعة لهيمنة . إن المفكرين القبائليين هم علماء ، اقتصاديون ، قانونين ، علماء إجتماع مقتدرون

، اسلامولوجيون ذو صيت " ولم يكونوا أبدا (أو تقريبا) مثقفون منخرطون في معركة أمازيغية ، إنهم مناضلون خالدون من أجل قضايا الآخرين . هاهنا مسألة قديمة ، تقليد تليد لدى النخب المفكرة الأمازيغية .

.. فمنذ التاريخ اللاتيني القديم ، يخدمون ، بحماس وفعالية ، الثقافة المهيمنة الأجنبية للفترة التي هم فيها .

لنخلص الى القول بأن النخب القبائلية لاتشكل ، حاليا ، تربة ومحركا للمطالبة الأمازيغية .

أسباب وهم : عناصر مفسرة

كيف يعقل إذن أن هذه الأطروحة حول علاقة وثيقة بين "النزعة الأمازيغية " والنخب القبائلية هي عنيدة وشائعة الى هذا الحد بينما رأينا للتو كيف أنها تفتقر الى أي سند سوسيولوجي أو سياسي؟

بطبيعة الحال . ليس من الغريب في شيء أن يلجأ اليها الخطاب الرسمي (أو القريب من نظام الحكم الجزائري) في معركته ضد الإنتماء الأمازيغي . إن الموضوعات المعادية للأمازيغية تنهل باستمرار من هذا المخزون من الخطاطات :

النزعة الأمازيغية = بورجوازية . النزعة الأمازيغية = نخب قبائلية فرانكوفونية = نخب معادية للوطن = أجنبي . نزعة أمازيغية = تضليل استعماري جديد وامبريالي بل وصهيوني . إننا نصادف بإستمرار هذه الخطاطات والتي يزدهر معها جيدا قانون العيب ، وتهيء مجلس أمن الدولة في الصحافة الجزائرية تباعا في سنوات ١٩٦٣ ، ١٩٨٠ و١٩٨٥ ، أي كلما "تململت" القبائل طيب ، كل هذا يدخل في باب الحرب خدعة ، لكننا نفاجأ ، بالمقابل ، عندما نعاين باستمرار هذه الأفكار في أوساط

الجامعيين المتخصصين في المغرب الكبير .

سأحاول إذن ، كخلاصة لهذا التدقيق ، صياغة بعض العناصر المفسرة . إن الأسباب عديدة فعلا وذات طبيعة مختلفة طرحت من قبل العقبة التي يستحيل ، تقريبا ، تذليلها من لدن الملاحظ الخارجي ، والمتمثلة في الإلمام ومعرفة واقع حركة ضاربة في الأعماق وعلى نطاق واسع ، موازية ومقادة خارج الأطر الشرعية والمؤسساتية . والحالة هذه فإن علماء الإجتماع وعلماء السياسة بالمغرب الكبير هم ، بشكل عام ، جد تابعين لمصادر الإجبار المؤسساتية . إلا أن هذا المعطي التقني لايفسر كل شيء ؛ إذ يمكننا تبين نشازات ، هنا وهناك في المقاربة والتحليل .

إن الملاحظ الخارجي هو ، باستمرار ، في علاقة مع القبائل عبر نخبها المقيمة بالجزائر العاصمة أو بالخارج : جامعيون ، أطراف فرانكوفونية أساسا وفى الغالب ، منحدرة من عائلات مقيمة بالقبائل . إن هذا العالم الصغير الخاص لصيق بالقبائل ، ويشكل ، من ثمة ، شاشة ومصفاة مشوهة .

إن الخطأ يكمن ، قبليا ، في الإعتقاد في أن هذه النخب القبائلية ممثلة وحاملة لتيارات فكرية تخترق منطقة القبائل.

تحدث الإنزلاقة بشكل متواتر وخاص حينما يخلط الملاحظ ، في الغالب ، بين الإنتماء القبائلي و" النزعة الأمازيغية" . إن القبائليين - وكيفما كان انتماؤهم الإجتماعي - يثبتون ويعلنون في زهو أصلهم القبائلي من خلال الإستعمال الشاراتي للغة ولمرجعيات خاصة وسمات سلوكية معينة كذلك . هذا الشعور بالإعتزاز المحلي - في الغالب ، نوع من من النوستالجيا - هو مسألة شائعة لدى كل فئات الساكنة القبائلية . فقد لن يتردد مسؤول على مستوى عال في الدولة

أو جامعي مشهور (ومفرنس بعمق) في تقديم نفسه كقبائلي ضمن ملابسات خاصة وأن يفخر بتميزة بـ "خصال جوهرية " بإعتباره قبائليا (في مقابلة "العربي" . يتردد صدى مثل هذه التصريحات السهلة واللامسؤولة في الصالونات الجزائرية (الجزائر العاصمة) و الباريزية . بل لقد شاهدنا مسؤولين - في مستوى عال من المسؤولية في مصالح الأمن وشاركوا ، لسنوات في قمع التحركات الأمازيغية - يفخرون "بانتمائهم القبائلي" .

معنى هذا أنه يجب الإحتراز من الوقوع في الخطأ الفظيع ! وأنه يتعين التمييز ، بعناية ، بين شعور الإنتماء والإرتباط بمنطقة معينة وبين الإلتزام (السياسي أو الثقافي) لمصلحة تأسيس عناصر هذه الخصوصية" وبعبارة أخرى : العمل على الإعتراف المؤسساتي بالهوية الأمازيغية للجزائر .

لقد كان الكورسيون في فرنسا ممثلين ، بقوة ، في الشرطة ، بينما الأوكيستان ممثلون في جهاز الدولة الفرنسي. وظل هؤلاء ، في الأغلب الأعم مرتبطون بأرضهم التي يذهبون اليها ولازالوا حتى اليوم ، وبشكل عام لما يحالوا على المعاش أو يدركهم الموت . ومع ذلك ، فقد كانوا بمثابة الفاعلين الأكثر فعالية في فرنسة المناطق التي ينحدرون منها .

إن حب الجبنة الكورسية لايجعل من الموظف الكورسي انفصاليا أو استقلاليا (مطالبا بالإستقلال - المترجم) ، بل وحتى مناضلا من أجل الثقافة الكورسية . ومع ذلك ، فإن هذا النوع من السوسيولوجيا السياسية هي الرائجة ، على العموم ، عندما يتعلق الأمر بالأمازيغيين .

إن إختزالا من هذا النوع هو الذي يحكم تلك الأطروحة المتقادمة

والمتمثلة في الربط الحميم بين النزعة الأمازيغية والفرانكوفونيا - بل والفرانكوفيليا - وهي الموضوعة المفضلة عند الدعاية الرسمية . إن منطقا مماثلا يقف من وراء هذا الإستدلال :

١.إن النخب القبائلية فرانكوفونية / فرانكوفيلية في غالبيتها ؛
٢.النخب القبائلية حاملة لـ "النزعة الأمازيغية"
٣.النزعة الأمازيغية تخفي من ورائها الفرانكوفونية /الفرانكوفيليا .

إذا كانت اللحظة ٢ من الإستدلال خاطئة جذريا - وهذا ما تبين لنا قبل - فإن مجموع البناء ينهار . أما أن يكون أغلب الوجوه البارزة والمنشطة للحركة الأمازيغية ، فعليا ، ذات تكوين فرانكوفوني ، فهذا لا يغير بطبيعة الحال، الأمر ، في شيء . فحالة هذه الوجوه هي نفس الحالة التي كانت عليها الأغلبية الواسعة الممارسة لتأطير الوطني الجزائري قبل وبعد ١٩٥٤ .

إن سيادة الفرنسية في الحياة الفكرية والسياسية بالجزائر قضية قديمة ولازالت مستمرة ، وليست قضية عالقة ، لا بالنخب القبائلية ولا بمؤطري "النزعة الأمازيغية" على وجه التخصيص .

سيكون من غير اللائق مؤاخذة الأمازيغيين على ذلك أو أن نرى فيه مؤشرا على الفرانكوفيليا عندما نعاين بأن كل الوجوه الكبرى للوطنية الجزائرية والإنتلجنسيا المغاربية قد قامت بذات الشيء وأستمرت في القيام به . حينذاك ، فما سيكون شيئا محايدا وغير ذي دلالة بالنسبة لـ : الأشرف ، طالب ، قداشي ، حربي ، عباس ... المجاهد بالفرنسية Algere – Actualits (لنشر هنا الى أن الصحافة الوطنية الفرنسية تفوق أعداد السحب فيها ثلاث مرات نظيرتها بالعربية) ، سيصبح محط لبس وإبهام بالنسبة للأمازيغيين !

لنرجع الآن الى "الحتمية الميكانيكية" لأنه هاهنا يكمن - في العمق - بشكل نظري أساسي . إن ما يجب التخلص منه ، إطلاقا ، في "سوسيولوجيا النزعة الأمازيغية " هذه ، والذي حاولت تبيان ضحالته هو بالضبط ، شكل المرور مما هو سوسيولوجي الى ماهو سياسي .

فضمن هذا المنظور لايجعل الإعتراف بالسياسي والايديولوجي كمواضيع في المعرفة مستقلة والتي تتعين دراستها في حد ذاتها قبل البحث في وضعهما ، ضمن علاقة ، مع السوسيولوجي والسياسي . إن السياسي والايديولوجي - ضمن هذا المنظور دائما - لايعتبران إلا كتمظهرات كأعراض لمستويات أكثر عمقا (" مستويات محددة") والتي تختزل إليها إختزالا .

يسمح أصحاب هذا المنظور إذن لأنفسهم بوضع السياسي في مأزق خارق للعادة وبزعمهم تفسير السياسي حتى دون ضبطه !

لا تفسر السياسي بإختزاله الى السوسيولوجي - فالمعطيات السوسيولوجية والإقتصادية تشكل - لامحالة - بشروط إمكان ، عواملا مرشحة للظواهر الإيديولوجية والسياسية ، لكن ليست ، لاجواهرلها ، ولا بالضرورة ، وبشكل مباشر ، محركا أساسيا لها .

أن هذه المقاربات التي أنتقدتها تسمح - لربما - بوصف صحيح للبنية السوسيولوجية للقبائل والساكنات القبائلية ، لكنها أكيد أنها لا تسمح بفهم الظاهرة الايديولوجية والسياسية المتمثلة في "النزعة الأمازيغية " .

إن "النزعة الأمازيغية " وكما هي في الواقع - تحيل ، قبل كل شيء الى صورة عن الذات تستند على وعي تاريخي وتقليد ثقافي وواقع لغوي يخصون جماعة إثنولغوية .

وهذا الوعي ، بادىء ذي بدء ، حصر على الشعب والفئات التي تعيش فعليا هذه اللغة وهذه الثقافة ، وليس حصرا على كمشة "نخب" التي ، ومنذ بداية التاريخ الأمازيغي ، تنزع الى ممارسة التنكر الثقافي .

لست من الذين يعتبرون (القديس أوغسطين) أمازيغيا .

السياسة البربرية لفرنسا
من الأسطورة الى الحقائق

"السياسة البربرية لفرنسا" "الظهير البربري" : هاهنا أسطورة لازالت تنعم بالحياة ! يجب القول بأن مؤرخين . انثربولوجيين فرنسيون حلقوا عاليا التصقت أسماؤهم بها . وسلطة المكتوب . مجرد السلطة . لها في البحث العلمي الغربي وزن الحاسم .

الأخطر في كل هذا . كما هو الشأن دائما في العلوم الإجتماعية . هو أن تيمة بمجرد ما يتم تداولها . فإنها تترسخ بشكل ملغوم لا لشيء إلا لكونها تتطابق مع مقاربة لإيديولوجيا تمثل موضة العصر (يتعلق الأمر هنا أساسا بالوطنية العربية الإسلامية والنزعة اليسارية المعادية للإستعمار) تصبح تلك التيمة إذن . وبسرعة واقعة مقبولة فكرة مسايرة للتيار لا تستحق برهنة . والتي ستخبر . دون أن تفصح عن نفسها ولا حتى أن تكتمل ليس فقط الخطاب السياسي الايديولوجي والجرائدي بل وحتى الأعمال التي تدعي العلمية . وبذلك تحصل إشاعة . ولعقود بكاملها . طروحات خالية من الواقعية كلية واضعة الأقنعة على المعطيات الموضوعية الصارخة .

سأكون إذن . وبشكل إرادي . مندفعا . فإن نحن أعطينا للكلمات دلالتها العادية المتمثلة في الإستعمال المتداول . فإن صيغة "السياسة البربرية" تحيل كا "لسياسة الزراعية" "السياسية التعليمية" الى جملة من الإجراءات (تشريعية . مسطرية . مادية)ذات أهداف مرسومة . أي متجهة صوب هدف استراتيجي مرسوم وموضوع بوضوح . وفي هذا

الإتجاه يمكننا الجزم بأنه ليس هنالك من "سياسة بربرية لفرنسا" ففي أي مجال كان ، سواء في الجزائر أو في المغرب ، لايمكننا ضبط - إبان الفترة الإستعمارية الفرنسية - عقيدة متماسكة ودائمة آئلة الى قرارات ملموسة تتوخى أهدافا واضحة من شأنها تشكيل "سياسة بربرية" بشكل إيجابي .

ثمة نوايا ، هنالك خطاب غير قار ومتناقض على أية حال - لأننا سنجد أيضا " أمازيغوفونيون " وكثير من "العربوفيليين" لكن لانجد أبدا خطا سياسيا متماسكا وبالأحرى أية ممارسة فعلية .

صحيح أن هناك إستعمال ايديولوجي مكثف من لدن الخطاب الإستعماري الفرنسي لتيمة "الخصوصية البربرية" لكن لم تكن هنالك البتة أية ترجمة ملموسة ودالة لما بقي - على امتداد الحقبة الاستعمارية - مجرد خطاب تقسيمي . وحتى بصدد هذه النقطة سوف يتعين توخيا للنزاهة تدقيق الأشياء بشكل جاد . لقد كان الخطاب البربروفيلي الفرنسي أساسا ذا طابع ثانوي . نجده بالأخص في أدبيات من الدرجة الثانية وفي إنتاج علمي من نفس الدرجة ، إنه إستثناء ، ولو في تواريخ قديمة ، عند كبار المثقفين ولدى الجامعيين المقتدرين ، وهو أشد نذرة عند السياسيين من الدرجة الأولى .

ففي الواقع ، وإذا أعتبرنا الميادين المفتاحة ، المعايير المحددة الأساسية للإنتماء الأمازيغي أي اللغة والثقافة - نعاين أن فرنسا لم تنخرط أبدا في عمل ما يستهدف الرقي والنمو في هذين القطاعين ، وهي التي تتوفر، مع ذلك ، على كل الوسائل ، وبالأخص بالجزائر .

إن فرنسا لم تعتزم أي تمدرس باللغة الأمازيغية ولو على سبيل التجريب ، ولم تعتزم أية مبادرة لتشجيع ونشر الكتابة الأمازيغية ولا أية محاولة لخلق صحافة بلغة أمازيغية رأت النور في عهدها ، أي على

إمتداد ما يربو على قرن .

لقد ظلت الدراسات الأمازيغية حتى الإستقلال ظاهرة أكاديمية محضة بدون أي إستهداف إجتماعي . أما في الميدان الجامعي فلقد غادر الفرنسيون المغرب الكبير دون تكوين قاعدة محلية تهتم بالبحث في حقل الأمازيغية . فكل الأطروحات حول الأمازيغية (لغة /أدب) والتي ناقشها مغاربيون حصلت بعد التخلص من الإستعمار (إنطلاقا من ١٩٧٠).

إنه إذن لقلب صارخ للحقائق ذاك الإدعاء المتمثل في إرجاع الفضل في تنامي الدراسات الأمازيغية بالجزائر والمغرب ، طوال الحقبة الإستعمارية ، الى "سياسة بربرية" مزعومة . فماذا يتعين إذن قوله بخصوص الدراسات العربية ؟ أيتعين تجويز كون الفرنسيين حماة ساهرين على اللغة العربية ؟ .

إن التمدرس حصل دوما بالفرنسية ، وبعد ذلك بالعربية ولم يحصل قط بالأمازيغية .

إن لغة المؤسسة كانت دوما هي الفرنسية أو العربية ولم تكن أبدا هي الأمازيغية ، بما في ذلك داخل النسق القانوني الذي تجيز فيه طوعا وجود خط حركي "بربري" . هكذا أنتشرت اللغة العربية وبالأخص المكتوبة في المناطق الأمازيغوفونية من خلال المؤسسات التي أقامها فيها الفرنسيون :"مكاتب عربية" "عدالة السلم" ، بل وحتى ، خلافا للمظاهر ، من خلال المدرسة إذ أن العربية يدرسها كل الجزائريين الذين يلجون المدرسة في التعليم الثانوي . وقد أدخل التدريس الإجباري للغة العربية قبل الحرب العالمية الثانية في مؤسسات الآباء البيض بالقبائل . ففي الوقت الذي أتهم فيه هؤلاء التعساء (الآباء البيض) بكونهم دعاة "النزعة البربرية" بالقبائل - بل وبكونهم هم الذين "خلقوا

الأمازيغي خلقا" على حد تعبير أحد وزرائنا القدامى - فإنهم لم يدرسوا أبدا الأمازيغية في مدارسهم حتى بصفتها لغة تكميلية .

أما بخصوص الزيادة الإضافية التي كانت تتسلم للمعلمين الحائزين على بروفي في الأمازيغية ، فإنه يجدر التذكير هنا أن نفس الأمتياز كان يستفيد منه الحائزون على شهادة في اللغة العربية ؛ بل حتى الحظوة الدراسية التي يزعم الزاعمون أن القبائلي يستفيد منها لابد من التدقيق في أمرها بشكل جدي وتستحق أن تؤول مجددا . إن عملية بث المدارس - وهي عملية جد مبكرة وجد مكثفة - في مناطق قروية بعينها لم تكن تنسحب إلا على بعض الجماعات المحددة (دائرة الفور ناسيونال ، وادي سومات) وحتى في هذه المناطق فإن المعني أكثر بهذه المدارس هي المراكز الحضرية الصغيرة في التجمعات السكنية الموجودة في القرى الكبيرة . فليس هنالك على صعيد القبائل سياسة تعليمية معممة ؛ إذ أن البابور ، البيبان ، القبائل الساحلية مثلا ستهمل بل وحتى في قبائل دجردجرة لن يمس التمدرس إلا أقلية من الأطفال . أما النجاح المدرسي المرتفع تسببا بالقبائل فيعزى أكثر الى محددات سوسيو ثقافية داخلية منه الى سياسية تعليمية فرنسية . فبالنسبة للقبائليين الذين ينتمون الى منطقة فقيرة مكتظة بالساكنة ، ظهرت المدرسة باكرا مع الهجرة كوسيلة وحيدة للهروب من البؤس الشائع. فهناك ومنذ بداية القرن تثمين للتعليم ودمج لايديولوجيا - جمهورية ثالثة جدا - تقول بالنجاح من خلال المرور من المدرسة .

بإمكاننا مضاعفة معاينات مماثلة في ميادين أخرى . فلقد كان بوسع فرنسا ، بطبيعة الحال ، سواء بالجزائر أو الصحراء ، ومنذ القرن ١٩ إحداث كيانات إدارية وترابية متجانسة لغويا ، وتكون بذلك قد سجلت ميدانيا توزيعا إثنولسيا للبلد . لقد كان كيان "قبائلي" قابلا للتحقق

تماما في التقطيعات الترابية الفرنسية . وكذلك كان قابلا للتحقق، آجلا ، كيان طوارقي . ومع ذلك فإن فرنسا لم تقدم على ذلك أبدا . بل لم تعتزمه البتة بشكل جاد كما يعترف بذلك (Ageron) نفسه المنظر الكبير للسياسة البربرية لفرنسا !

بالعكس من ذلك ، فلقد تم تفضيل التقطيع الإصطناعي للقبائل بتقسيمها الى جزءين (القبائل الكبرى المرتبطة بالجزائر العاصمة والقبائل الصغرى المدمجة في ولاية قسطنطينة) وتوزيع المجال الطوارقي ؛ بشكل إصطناعي بين الجزائر (أراضي الجنوب : أهقار ، آدجر) ، ليبيا النيجر ومالي مع كل ما ترتب عن ذلك من عواقب درامية تعرفها جيدا . فلإبادة الثقافية التي تتعرض لها بعض المجموعات الطوارقية (الجزائر، ليبيا) يرجع سببها التاريخي الى التحديدات الإدارية المجحفة التي أقامها الفرنسيون . إن الجزائر المستقلة تستلهم دائما ، على أي من هذه السياسة الإستعمارية لأنها تقوم بتقطيع وإعادة تقطيع منتظمة للمناطق الأمازيغوفونية ، وبالأخص منطقة القبائل (وهي المجزأة حاليا الى خمس ولايات مصطنعة) . أما الهدف فيظل واحدا بإستمرار : الحيلولة دون بروز وتقوى الكيانات الجيوثقافية وتمطيط المناطق الناطقة بالإمازيغية داخل وحدات ترابية غير متجانسة . إن العديد من البلدان تعرف التفتيت الإنتخابي . أما الجزائر من جهتها - وتأتي في ذلك بعد فرنسا - فتمارس بشكل منهجي التفتيت اللغوي .

إذا جوزنا أن هدف العلوم الإجتماعية هو تحليل الوقائع الإجتماعية وليس فقط الخطابات ، فإن هذه التذكيرات كافية لإبراز إنعدام أية "سياسة بربرية لفرنسا" والتي ، إن هي وجدت أصلا ، فستكون لها آثار، غاية في الأهمية داخل الحلبة السياسية المغاربية وفي عملية تطورها ، لأنه بذلك ستكون اللغة الأمازيغية قد أستفادت مما يربو على قرن من

الإضطلاع المؤسساتي بعبئها . وستكون الوحدات الترابية الأمازيغية قد إنغرست في المشهد المغاربي منذ نهاية القرن ١٩.

لكن عكس ذلك تماما . إمكاننا إثبات كون تدخل فرنسا ساهم بالأحرى في تسريع لوتيرة تعريب عدة مناطق أمازيغوفونية . فبفتحها للطرق وتسريعها لوتيرة حركة الساكنات (هجرة مؤقتة نحو المدن والهجرة القروية) . وبتدميرها للأسس الإقتصادية للمجتمع التقليدي . عمل الإستعمار الفرنسي على توجيه ضربة لجزء كبير من الأسس الموضوعية الضامنة للإستقلالية . ومن ثم الإستمرار في البقاء ثقافيا ولغويا لدى الجماعات الأمازيغوفونية . وبالأخص الصغيرة منها أو أكثرها إنعزالا إن هذا الدور المتمثل في تسريع وتيرة التعريب واضح بين في المناطق الأمازيغوفونية "الهشة" كمنطقة وهران والجزائر الوسطى (و ارسنيس) بوجه خاص فيبدو جيدا . إذا رجعنا الى الخارطة الفرنسية أن هناك الى حدود أواسط القرن ١٩ إستمرارية لغوية أمازيغية بين القبائل ومنطقة الشاوية عبر ذيل ضيق يمر من منطقة سطيف . هذا ما تبرزه خارطة تنتمي الى تلك الحقبة (هانوتو ١٨٦٠) . إن التعريب الشامل لهذه المنطقة نتيجة مباشرة لتكثيف المبادلات على الطريق الرابطة بين الجزائر العاصمة وقسطنطينة وسياسة الإستعمار الزراعي مع كل ما رافق ذلك من إضطرابات على مستوى الساكنة المحلية القاطنة هناك .

إن دور ناقل التعريب الذي لعبه الإستعمار لايختزل الى مخلفات موضوعية لمجرد إنقحام لزعزعة الإستقرار . فهنالك بهذا الخصوص تدخل إرادي من طرف السلطة الفرنسية . كما وقفنا على ذلك قبل . فإن المدرسة والمؤسسة القانونية والإدارية الإستعماريتين ساهمتا في نشر العربية في المناطق الأمازيغية . هنالك قطاع آخر حيث لهذا النشاط صبغة مكشوفة بشكل خاص . يتعلق الأمر بنومونكلاتورا

(nomenclature) التسميات الفرنسية الرسمية سواء كان ذلك في إطار الطوبونيميا أو الإثنونيميا أو الانثرويونميا فبدل الإكتفاء بمجرد تدوين أسماء الأماكن ، القبائل والأسر في شكلها المحلي الأمازيغي سعت الإدارة الفرنسية جاهدة الى تعريب الأسماء الخاصة بالمناطق الأمازيغوفونية . بحيث أصبحت ألقاب كلآيت ... أو الأو... هي سي... ولد... وبن... وتم تطبيع الأسيف بالأمازيغية بتسمية واد ، بل إن حتى شكل الطوبونيمات غالبا ما حصل تعريبه .

وهكذا أصبحت إعزوكن هي أزازكا ، وأصبحت إيواضيون هي وادهيا وإمشدالن هي مشيد يلاه . أما إعازوزن فانقلبت الى عازوزا وسيبلغ هذا المسلسل مداه مع وضع كنا نيش الحالة المدنية ، وبوجه خاص منطقة القبائل، بشكل سوريالي بحت . هكذا لايتم فقط تعريب الأسماء العائلية التقليدية بل يتم إستبدالها بأسماء أخرى عشوائية تماما ، هي في أغلب الحالات عربية أو ذات شكل عربي . سأعطي هاهنا مثالين من بين ألف مثال : فآل إحد وشن بقرية أزازكا سيصبحون في الحالة المدنية آل "بشير - شريف" أما في أدني ، فآل اجليلي" سيصبحون منئذ هم آل "شاكر" . ومن هنا هذه الوضعية اللامعقولة الحالية حيث الأشخاص لهم إسم أمازيغي عندما ينطق بالأمازيغية واسم "الحالة المدنية" عندما يستعملون الفرنسية أو العربية . نعرف على أية حال السياق الدقيق الذي حصلت فيه (ابتداء من ١٨٨٠ بخصوص القبائل) مسلسل تعريب الأسماء الشخصية الأمازيغية - ففي تلك الحقبة كان للإداري الفرنسي ، على العموم، تكوين معرب أما مساعدوه من الأهالي فكانوا إما عربوفونيون أجانب عن المنطقة أو أمازيغوفونيون متعلمون تلقوا تعليما قرآنيا وانحدروا دائما تقريبا من أسر دينية مرتبطة بالزوايا . ولقد صلحت العربية ، بطبيعة الحال ، كنموذج مرجعي دائم في عمل التسمية الذي قامت به فرنسا .

ومادام أن الإسم وسلطة إعطاء التسمية شكلان أساسيان من أشكال الهوية ، فإن المؤسسة الإستعمارية ، وعبر هذا الفرض أنكرت إستقلالية المجموعات الأمازيغوفونية ودمجتهم قسرا في البوتقة العربية .

لنأتي الآن الى المجال القانوني الى الظهير البربري التشهير بالمغرب سنة ١٩٣٠ . ولكن أيضا الى مسألة الإعتراف وتقنين العرف القبائلي في ١٨٧٠ .

في المقام الأول ، يتعلق الأمر هنا بميدان ثانوي غير حاسم من وجهة نظر الهوية الأمازيغية لا لشيء إلا لأنه ليس ثمة قطيعة مطلقة بين القانون القرآني والأعراف الأمازيغية . فهناك إختلافات ملموسة ، ميزات بارزة ، لكن هناك أيضا تأثير دائم وجد قديم للشرع الإسلامي على الأعراف الأمازيغية .

لايتعلق الأمر إذن بعالمين متمايزين كل التمايز .

لقد وجد الفرنسيون عند وصولهم الى المناطق الأمازيغية ممارسات قانونية خاصة ومتمايزة بدرجات متفاوتة (وبالأخص في الأطلس المتوسط والقبائل مقارنة مع إشلحين) عن القانون الإسلامي . ألح على هذه البديهية .

فقانون العرف الأمازيغي معطى موضوعي في المجتمعات الأمازيغية يوجد قبل وصول الفرنسيين الذين لم يخلقوه من عدم كما يمكن الإعتقاد بذلك عند قراءة أدبيات القومية العربية الإسلامية ! أكتفى الفرنسيون إذن بتكريس وضعية سابقة عليهم . لايوجد الأمازيغيون خارج الشرع الإسلامي (وخارج السلطة القانونية لسلطان المغرب) إلا أن الأغلبية الغالبة منهم تتملص منه مع ذلك .

فكل المجتمعات الأمازيغية خلقت خلال تاريخها قوانينا خاصة طبقتها بكل إستقلالية.

ونحن نذكر بهذه الوقائع نكون قد وضعنا أساسا في إطار نسبي الدلالة "المتمازغة" berberiste للظهير البربري. إن رجالا كـ جاك بيرك J.berques الذي لا يشتبه في أن له ميولات نحو النزعة الأمازيغية أصدره حكما واضحا في هذا الشأن : فلم يكن يتعلق الأمر بتاتا ، بخصوص الظهير البربري بتشكيل "بربرشتان" أو حتى تقوية نقطة إحتياطية يعتمد عليها في المستقبل .

لقد أعطى الدليل على ذلك بخصوص حالة القبائل . فرغم أن قانون العرف كان معترفا به (ولكن ليس في كل مكان بل فقط بالقبائل الكبرى) فإنه بإمكان المتقاضي دوما الرجوع الى العرف لكن يكون الأحكام الصادرة في حقهم وفق القانون الإسلامي (بتيزي ووزو و الجزائر العاصمة) . هذا ما يدل على أنه . وبالرغم من الخطابات البربروفيليه فإن السلطة الفرنسية كانت لا تعترف في المستوى الأخير إلا بالقانون الإسلامي كمرجع قانوني أعلى لكل الأهالي . هاهنا أيضا . فإذا رجعنا الى المعطيات الملموسة . فإن "السياسة البربرية" لفرنسا تختزل الى النزر اليسير . لنذكر أيضا بأن أحكام العدالة المدنية الصادرة بالقبائل بحق "الأهالي" كانت في الغالب تحرر بالعربية . يكون صدى الظهير البربري إذن سنة ١٩٣٠ مرتبط أكثر بالظرفية التاريخية السياسية منه بالمحتوى الذي يتضمنه أو حمولته الفعلية . أتى في وقت تبلورت فيه الوطنية المغاربية سواء بالمغرب أو بالجزائر (مع نجمة شمال افريقيا والعلماء الأوائل) .

فلقد أثارت المبادرة الفرنسية معارضة شديدة لأن الضمير الوطني الفتي رأى فيها - وهو ضمير تربطه صلات متينة بالعروبة

الشرق أوسطية – عدوانا من نوع خاص .

من الأهمية بمكان قراءة ردود الأفعال الوطنية المغاربية والعربية لتلك اللحظة . فلقد تم التلويح بشبح تقسيم المغاربيين و – قمة الهلع – بتنفير الأمازيغيين في الوقت الذي لازال فيه رماد حرب الريف ساخنا (١٩٢٦) ولازال أمازيغيو الأطلس الكبير يقاومون الغزو الفرنسي وأياديهم على الزناد !

إن الطابع الغير واقعي بالكامل في وضعية كهذه مدهش حقا . ويوحي الى درجة قصوى بالإرتياب العميق ووضع اللامشروعية المتأصلة التي تضع فيها الوطنية العربية الإسلامية دوما الأمازيغيين . ولسان حال هذا الموقف يقول: أخطؤوا لما وجدوا وأخطؤوا لما كانوا مغاربيين . دون أن يكونوا عربا ! لقد كانوا وسيظلون كذلك : أناس مشبوهون، - حتى أولئك الذين كرسوا حياتهم كلها للمعركة الوطنية (عبان رمضان ، آيت أحمد، كريم بلقاسم...) ماداموا لم يتنكروا لخصوصيتهم الثقافية للإنصهار في الحظيرة العربية .

x x x

في الواقع ، إن الميدان الوحيد الذي يمكننا أن نتبين فيه ، بشكل جدي ، ، أثر الإستعمار بخصوص الأمازيغية هو ميدان المعارف المنتشرة في المجتمع المغاربي وبوجه خاص بالقبائل ، حيث نخبة مثقفة ذات تكوين غربي بدأت تتشكل منذ نهاية القرن ١٩ – لكن هذا التأثير لمعارف ذات أصل غربي نتيجة ميكانيكية وضرورية لوضعية تاريخية ، وفي أية حالة ، ليست نتيجة لـ "سياسة" فرنسية بالمعنى الذي تحيل فيه هذه الكلمة الى جملة تدابير هادفة . فإن كان هنالك من تأثير فرنسي بهذا الخصوص ، فإنه مستقل عن كل "برمجة" سياسية . فالتيمات والمعارف المرتبطة بالأمازيغيين ليست سوى جزء صغير من

المخزون الثقافي والفكري الذي روجته المثاقفة الغربية بالمغرب الكبير ، والذي اتخذه السكان الأصليون مخزونا لهم (بما في ذلك الإصلاحيون المسلمون) هذا المخزون الذي نجد فيه أيضا مفاهيما كالدولة - الأمة ، الوطنية العصرية ومقولات كالحقوق ، الحريات الدستورية والمساواة بين الأفراد ...

لكن حينما نعود الى الوقائع العيانية فإن "السياسة البربرية" لفرنسا تتلخص أساسا في القمع والتدمير ، وهو قمع وتدمير دفعا بهما الى مستوى غير معروف في المناطق العربوفونية وعنف مدو لغزو عسكري أستمر على امتداد عقود (القبائل ، المغرب الأوسط) ، عنف مكثف في قمع الإنتفاضات (القبائل ، الريف الأوراس) ، تدمير التنظيم التقليدي ، تدمير التوازنات الإقتصادية القديمة ، طفرة فجائية في الأجور عبر الهجرة المكثفة (قبائل ، شلوح ، ريفيون)، ثقل قمعي أقصى تحملته المناطق الأمازيغوفونية طوال حرب التحرير (قبائل ، أوراس). أكيد ، لقد كان للفرنسيين طريقة طريفة جدا في إعطاء "الحظوة" للأمازيغيين .

لكن أولئك الذين يتمسكون بفكرة "سياسية بربرية فرنسية " لايخشون لا المفارقة ولا الوقوع في التناقض ، ويخلطون بشكل جرىء بين المحددات السوسيوتاريخية والنشاط السياسي .

ألا يذهب الذاهبون الى حد إعتبار المثاقفة الغربية المتأصلة في كل شرائح المجتمع القبائلي كأثر لـ "سياسة بربرية" لا تنكر بينما هي ، قبل كل شيء ، من ذيول ما يقرب من قرن من التدفق الهجروي - من البؤس والإقتلاع من الجذور - في إتجاه فرنسا - ومن سنوات منفاهم الجرداء حمل القبائليون معهم المرض ، الإهتراء المبكر ، العاهات ، وأحيانا كمشة نقود ، وفي معظم الحالات حملوا معهم وعيا حادا بظلم

النظام الإستعماري . وفي الأغلب تجربة وتكوينا نقابيا وسياسيا من الطراز العصري . والذي جعل منهم رواد وهيكل الحركة الوطنية الجزائرية الجذرية .

إن نحن ابتغينا فهم أشياء في التاريخ السياسي . يتعين بادي بدء موضعة الأحداث والأفكار في سياقها التاريخي والجيوثقافي الشامل .

فلم تكن هنالك من "سياسة بربرية فرنسية" لأنه ما كان لها أن تكون ! فالسياسة الفرنسية بالمغرب الكبير تندرج رأسا في التقليد المركزي والتوحيدي (ولو لم تكن تهب نفسها وسائلا) للجمهورية : الواحدة الغير قابلة للإنقسام. إن فرنسا التي كرست قرونا من تاريخها للقضاء على الخصوصيات . اللغات والثقافات المحلية على أرضها . لم يكن بمقدورها أن تهندس ولا أن تنمي "سياسة بربرية" بالمغرب الكبير . أضف الى ذلك أنه كان لفرنسا (وتحتفظ) تقليد دبلوماسي وجيوسياسي إسلامي وعربي منذ قرون يشكل حاجزا قويا أمام كل إغواء ذي عواقب بالنسبة للأمازيغي . فبالنسبة لأصحاب القرار من السياسيين الفرنسيين لم يشكل "الأمازيغي" أبدا بديلا جادا ولم يكن ليرجح الكفة في مواجهة السياسة المتوسطية العربية الإسلامية لفرنسا .

إن مفهوم "السياسة البربرية" هو إذن بمثابة أسطورة . أسطورة شيدت في نهاية الحقبة الإستعمارية من طرف متخصصين فرنسيين في العلوم الإجتماعية مستشعرين غمرة مواجهة الوطنية المغاربية العربية الإسلامية الصاعدة (بعد ١٩٤٥) "عقدة المستعمر الإتهامية" والتي لازالت على أي تسود .

إن ذلك التشييد لتلك الإسطورة يستند على إعادة تأويل الخطاب

بربروفيلي (في الواقع بربرومان berberomane) والذي يعزى له تماسكا ودلالة ملموسة لم يكونا أبدا من نصيبه .

فإن نحن قمنا ، في المحصلة ، ومع تقدم الزمن ، بحصيلة موضوعية للسياسة البربرية " لفرنسا نتوصل الى معاينة وضعية غاية في الإلتباس فطوال الحقبة الفرنسية بكاملها تعرض الأمازيغيون لعنف إستعماري أقصى . فالخطاب البربروفيلي لم تحصل ترجمته بشكل إيجابي على مستوى اللغة والثقافة الأمازيغيتين . أما على المستوى السياسي فسوف يكون كارثة تاريخية على الأمازيغيين . وذلك بجعل إحالة الى الإنتماء الأمازيغي ، ولمدة عقود ، شيئا مشبوها وفاقدا لأية مشروعية .

إن الضحايا الأوائل والرئيسيون "لسياسة بربرية فرنسية" سوف يكونوا هم الأمازيغيون أنفسهم .

الجزائر الوطنية والأمازيغيون
من التهميش الى الإقصاء

ما تقول به النصوص الأساسية :

ميثاق الجزائر العاصمة (الفصل ٣٥ : ١ / III) إن الجزائر بلد عربي إسلامي...) شكل الجوهر العربي الإسلامي للأمة الجزائرية حصنا منيعا أمام التدمير الذي استهدفها من طرف الإستعمار . ومع ذلك فإن هذا التعريف يقصد كل إحالة الى معايير إثنية ويناهض كل إستخفاف بالإسهام السابق على الدخول العربي "

الميثاق الوطني . ١٩٧٦ (العنوان الأول : ٨٣) "إن الشعب الجزائري يتشبث بالوطن العربي الذي هو جزء لا يتجزأ منه (...) ولقد إنضافت . بالتدريج . إبتداء من القرن III عناصرا أخرى مشكلة للأمة الجزائرية . أي لوحدتها الثقافية واللغوية والروحية (...) لقد كان الإسلام والثقافة العربية إطارا كونيا وقوميا في نفس الوقت (...) ومن الآن فصاعدا . فسوف يتحدد إختيار شعبنا ويتحقق تطوره داخل هذا الإطار المزدوج (...)

-" توصيات حول الثقافة" للجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني (يوليو ١٩٨٠) : " شكل الثقافة الوطنية خلاصة التجربة الجماعية للمجتمع الجزائري طوال تاريخه الطويل وتمثل بوتقة شخصيتنا الوطنية التي نمت بداخلها أسس هويتنا الجماعية وديننا الإسلامي ولغتنا العربية وانتماؤنا للحضارة العربية الإسلامية وتراثنا الثقافي الشعبي "

الميثاق الوطني المعدل ، ١٩٨٦ "يمتد تاريخ الجزائر الى عهود غابرة (...) كان ظهور الإسلام بمثابة ثورة شاملة إنسانية في مسعاها ، كونية في مبادئها ، عربية في تجربتها (...) إن الشعب الجزائري شعب عربي ومسلم ..." (ص ١٠٩)

الدستور ١٩٧٦ ،

المادة ٢ : "الإسلام دين الدولة"

المادة ٣ : "العربية هي اللغة الوطنية والرسمية . تعمل الدولة على تعميم إستعمال اللغة الوطنية على الصعيد الرسمي "

الدستور ١٩٨٩ (صودق عليه باستفتاء ٢٣ فبراير).

المادة ٢ :"الإسلام هو دين الدولة"

المادة ٣ : "العربية هي اللغة الوطنية والرسمية"

الخطابات السياسية

إن النصوص التوجيهية الكبرى واضحة ومتجانسة بخصوص الإحالة الى ما هو أمازيغي .فهي تتجاهلة وترجع به الى ماض انقضى ؛ وفي أحسن الحالات تضعه في المتحف (" الحفاظ على الفنون والتقاليد الشعبية") . لكن هذه الوثائق على صراحتها منذ الميثاق الوطني لـ ١٩٧٦ لاتكفي للإلمام بسياسة ما في هذا الإطار والوقوف على مناخ خاص يحيط بهذه المسألة ، بل إن النصوص المذهبية صعبة التأويل خارج ظرفية سياسية دقيقة والخطاب المباشر الذي أوجدها . هكذا يتعين أيضا معالجة المواقف والتصريحات الصادرة عن السلطة السياسية أو الناطقين المأذونين باسمها . إن المتن المتضمن لهذه المواقف أو التحاليل الرسمية أو الشبه رسمية يكشف دقائق وتواترات

المقاربات المعنية . ولكن أيضا الخلفية الشبه المشتركة بين أوساط الحكم .

يتعين علينا . بطبيعة الحال . لإصدار حكم متكامل وصائب . أن نأخذ في الإعتبار هذا الإنتاج على امتداد حقبة طويلة . إن أي عزل لهذا التصريح أو ذاك عن المجموع المكون له . سيعرضنا الى أن نقول لهذه التصريحات نقيض ما كانت تقصده أو تعنيه .

أحمد بن بلة : ١٩٦٢ - ١٩٦٥

كشف (هـ سعدي) (١٩٨٦)/ب) النقاب . بوضوح عن حقيقة مفادها أن أحمد بن بلة . وطوال فترة رئاسته، لم يكن ذلك التمامي المسلم الذي أصبحه منذ تمتعه بالسراح سنة ١٩٨٠ . حتى ولو أنه استهل في تلك الفترة وفي بعض الحالات . عبارة "الإشتراكية العربية الإسلامية" . فالنعت الأول أي "الإشتراكية الجزائرية" أي ذات الإنتماء العربي هو الذي كان يشكل في ذلك الوقت خلفية لقناعته وعمله . وعلى هذا المستوى كان موقفه صارما ونهائيا :" التعريب ضروري لأنه ليست هنالك إشتراكية دون تعريب (...) لا مستقبل لهذا البلد إلا في العروبة !" (خطاب ٥ يوليو ١٩٦٣)

وبشكل أشد صراحة . فإن الهدف النهائي لابن بلة كان يتمثل في "الوحدة العربية" . لقد كان بن بلة رجل إعادة إثبات الإنتماء العربي للجزائر وعروبتها .

فقد أفتتح عهد الإستقلال بعبارته الشهيرة المريرة بتونس العاصمة :"نحن عرب . عرب ١٠ مليون عربي !".

"إن الأمة الجزائرية تحددت . بحزم كأمة مغاربية لاتدخر جهدا للوصول الى أبناء مغرب عربي (..) تتحدد الجزائر أيضا كأمة عربية

باحثة بكل الوسائل عن صلات تربطها بالبلدان الشقيقة في أفق الوصول الى الوحدة العربية..."

(خطاب ١٩-٠٩-١٩٦٣ أمام الجمعية الوطنية) .

أما تعميم "اللغة الوطنية" =(العربية الكلاسيكية) فقد كان بالنسبة اليه ، هما ملازما أعاد تأكيده ، لمرات عديدة في خطبه ؛ الشيء الذي دفع به الى الدعوة المكثفة الى التعاون الشرق أوسطي (وبالأخص المصري منه : كان إعجابه به بعبد الناصر بلا حدود) لتأطير النسق التعليمي .

أما بخصوص البعد الأمازيغي فقد عرف عنه معاداته له منذ ذلك الوقت . وقد عرفت تلك المعاداة ترجمات سياسية دقيقة بعد الأزمة الأمازيغية (١٩٤٩) وإبان الصراع مع عبان رمضان (وردان ، ١٩٨٧ / أو ١٩٨٧ /ب) . فمن خلال ممارسته للحكم كان بن بلة ، أكثر وضوحا ، بحيث أصطدم بالمعارضة ثم بإنشقاق آيت احمد بالقبائل . منذ وقت طويل ، كانت كل إحالة الى الإنتماء الأمازيغي بالنسبة لأبن بلة بمثابة أداة للتقسيم لمصلحة الخارج . هكذا وحتى أن آيت احماد لم يجرؤ أبدا على المطالبة بالإعتراف باللغة الأمازيغية ، فإن بن بلة ومحيطة المباشر الماركسي أساسا ، يضيفان جبهة القوى الإشتراكية كحركة "إنفصالية ، ضيعة الإمبريالية والرجعية" وعبأ ضده كل قيم الوحدة الوطنية . لقد تم تحريك شبح "الإنشقاق البربري" لأول مرة ، من طرف أحمد بن بلة في ١٩٦٣ - ١٩٦٤ سنجد حول هذا الموضوع توضيحات عديدة في الصحافة الوطنية ، انطلاقا من أواسط شتنبر ١٩٦٣ .

على أي ، فإن سياسة التعريب وضعت خطوطها بوضوح في فترة حكم بن بلة كأداة للقضاء على الخصوصية الأمازيغية التي كان ينظر إليها كخطر محدق بالأمة . ففي ١٩٨٣ ، لازال بن بلة يعبر عن إرتياحه

تجاه "التقدم الحاصل في تعريب القبائل "في حين أن التعريب ، عند قادة آخرين ، كان موجها أساسا ضد الوضع المهيمن للغة الفرنسية . نعيد التذكير ، كما ذكرنا بذلك فوق ، أن بن بله كان على خلاف قديم ثقيل مع الزعماء السياسيين العسكريين القبائليين داخل الحركة الوطنية (آيت احمدError! Bookmark not defined. ، عبان) . هؤلاء الذين كانوا منافسين له والذين لم يشاركوه نزعته العروبية المناضلة .إن هذا الخليط المعقد من التحديدات الإيديولوجية والشخصية، في نفس الوقت ، هي التي تفسر المعاداة الشرسة الخاصة التي يكنها الرئيس الأول للجزائر للأمازيغية .

هواري بومديان (١٩٦٥-١٩٧٨)

إن فكرة "الخطر الأمازيغي " مضمرة وغير ظاهرة على مستوى ، الخطاب على العهد البومدياني . فالحكم المركزي المغالي السلطوي – والقمعي جدا – القائم لايترك أبدا الفرصة أو أية إمكانية لإحتجاج أمازيغي حتى يتمظهر بشكل مفتوح داخل الجزائر ، وحين يفعل ذلك فإنه يقمع في الحين وبقوة (رشيد شاكر ١٩٨٢) . بالنسبة للحكم الجبهات الحقيقية هي سياسية وصناعية ، "إمتلاك المصادر الطبيعية الوطنية" "الثورة الزراعية" و"الثورة الثقافية" مع إعطاء دفعة للتعريف (وبالأخص في نهاية حقبة الحكم البومدياني) ومع ذلك يمكننا تبين ، وفي لحظات عدة ، وبوضوح ، حضور " الأمازيغية " في التعبير الرسمي كانت البداية ما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٥ مع حذف الدراسات الإثنولوجية بالجامعة (إبان إصلاح التعليم العالي) ، وبمناسبة المؤتمر الدولي الرابع والعشرين للسوسيولوجيا حيث قام وزير التعليم والبحث العلمي (م.س بتيعيا) بمحاكمة حقيقية للإثنولوجيا التي اتهمها بأنها "علم استعماري" (أنظر بليل ١٩٨٧) فليس هنالك من شك في أن ما كان يؤاخذ في الواقع ، على الإثنولوجيا (بالمغرب الكبير بصفة عامة) هو

اهتمامها الطاغي خلال الحقبة الإستعمارية الفرنسية بالجمعات الأمازيغوفونية . وذاك معطى قاد ، منذ زمن طويل ، ايديولوجيا الحركة الوطنية الى إعتبار هذا العلم كعلم تابع للسياسة الإستعمارية "فرق تسد" كشكل بسيط لـ "السياسة البربرية".

على أي، فإن إختفاء الإثنولوجيا صاحبه ، اتوماتيكيا ، اختفاء الأمازيغية التي كانت تدرس في هذا الإطار .

أما قضية "واضعو القنابل" (٢٥-١٢-١٩٧٥ محاكمة مارس ١٩٧٦) التي حصلت في الوقت الذي كان يحتضر فيه الرئيس بومديان ، وقضية "رأس سيغلي" (١٠/١١-١٢-١٩٧٨) فستكونان مناسبة كذلك للصحافة الرسمية وللحزب والعدالة ليطرح ضمنيا فكرة "الخطر المتمازغ" . وهاتان القضيتين قامتا بذلك من خلال اتهامات مذلة لأنه سيتم التعامل مع هؤلاء المعارضين باعتبارهم مجرمين عملاء للخارج وللاستعمار الجديد . وفي كلتا الحالتين فإنهم يعملون لحساب مصالح سرية فرنسية و / أو مغربية أو لحساب أوساط إستعمارية معادية (لقد أشير بالأصابع الى OAS ، وبشكل واضح ، في قضية "واضعي القنابل").

في هذه المحاكمات تعرضت العناصر النشطة في "الأكاديمية الأمازيغية" لإهانة كاملة (انظر الفصل ٤) . هذا التنظيم ذو النزوع الجذري أنشأ في باريز وصدرت في حق عناصره أحكام قصوى (الإعدام والمؤبد) .

إن إستغلال "قضية أس سيغلي" أوحت على أية حال ، بوظيفة الفزاعة التي عمل ويعمل الخطاب الرسمي على أن يقوم بها "الأمازيغي" . فإبان إحتضار هواري بومديان ، حيث كان الأرتياب السياسي على أشدة وانطلقت المناورات للعمل من أجل الخلافة ، راج

حديث عن عملية إنزال بالمظلات للأسلحة موجهة الى عناصر متمازغة معروفة بالقبائل قام بها مغاربة . "هبط من السماء" – هذه هي الحالة التي تنطبق على هذه العبارة ليكون سببا في لم الصفوف وتعبئة الساكنة ضد "الخطر الخارجي" ؛ في الوقت الذي كانت فيه التكتلات تتأهب للسطو على الخلافة هذا الى الحد الذي شكك فيه العديد من الملاحظين . ولمدة طويلة في واقعية الأحداث نفسها .

" فشل عملية خطيرة هادفة الى المس بالأمن الوطني"
" ثورتنا هي الأقوى"
" إفشال التحدي الرجعي "
" مسؤولية المغرب قائمة"
" تدقيقات جديدة حول منظمي المؤامرة"
" يقظة متزايدة لجموع الشعب "
" العملية الإجرامية لرأس سيغلي "

هذه هي عناوين الصفحة الأولى لجريدة (المجاهد) من ٧٨/١٢/١٧ الى ١٩٧٨/١٢/٢٤ .

الشاذلي بنجديد (١٩٧٩)

أكيد أن السلطات الجزائرية لم تعبر بوضوح أكثر عن "المسألة الأمازيغية" كما قامت به تحت رئاسة الشاذلي بن جديد . وقد كانت "الهزة المتمازغة" التي حصلت على نطاق واسع بالقبائل في ١٩٨٠ – ١٩٨١ ، بالتأكيد ، بمثابة التحدي الإجتماعي المباشر لذلك . ومثلت "القرارات حول الثقافة" للجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني (يوليو ١٩٨١) المحاولة الأولى لإجابة مذهبية على هذا الضغط الأمازيغي . ولقد أجابت الرواية الجديدة للميثاق الوطني نفسه، وفي جزء كبير

منها . على هذا المطلب الذي يخص جزءا من المجتمع .

إلا أن المواقف المتخذة من الرئيس شخصيا وعدد من الوزراء أو مسؤولي الحزب . بشكل أكثر إنتشارا من الصحافة الرسمية . كانت مواقفا متعددة . وتسمح باضاءة النصوص التوجيهية التي ظهرت في هذه الفترة . وسنجد المتن الشامل لها في (تافسوت أمازيغي) (أنظر البيليوغرافيا).

تأرجح هذا الخطاب باستمرار وهذا التأرجح يتسم أحيانا بطابع فجائي في فترات قصيرة – بين التهديد . المحاكمة . القطيعة . وكذا إرادة معينة للحوار وقبول "الإتصال" بالمحتجين ومحاولات إدماج – تحييد المطالبة في الأطر المؤسساتية والسياسية للنظام . إن اللجوء الدائري الى القمع المباشر المصاحب لاعتقالات ومحاكمات (١٩٨٠-١٩٨١-١٩٨٥) هو الترجمة السياسية للإتجاه الأول . أما " المناظرة الوطنية حول الثقافة" (ربيع ١٩٨١) فيكشف النقاب عن الإتجاه الثاني .

- ردود فعل على أحداث القبائل (ربيع ١٩٨٠) :

+ المجاهد بتاريخ ١٥-٠٤-١٩٨٠ حقول : م-برير حي في جامعة تيزي ووزو . نقاش صريح وواضح حول التراث الثقافي الشعبي :

"(..) تدخل (م.برير حي) عدة مرات . طوال النقاشات . ليدقق أن هذا الملف مفتوح (أي ملف الثقافة الوطنية)(...) هكذا دقق الوزير أن "المسألة سوف تتم مناقشتها في إطار توجيهات "الميثاق الوطني وقرارات المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطني والمؤسسات الوطنية القائمة (...)"

هكذا تم وضع المشكلة . بشكل واضح . في سياق وطني شامل كما أن ضرورة الحوار والتشاور تستشعر تماما ولقد ثمن هذا المناخ

النقاش الصريح باعتباره أفضل طريقة للإلمام بالمشكلات ..."

+ عبد الحق برير حي (وزير التعليم العالي والبحث العلمي) في تصريح بتاريخ ٢٣-٠٤-٨٠ للإذاعة والتلفزة الجزائرية :

"تهدف أحداث تيزي ووزو الى ضرب الوحدة الوطنية في إطار مخطط مرسوم . ولقد تم حبك خيوط هذا المخطط من طرف الأوساط الإمبريالية والرجعية المناوئة للثورة الجزائرية والتي تهدف الى بث التفرقة في صفوف الشعب (...) وعند إستعراضه للعوامل التي ساهمت على المستوى الخارجي في تدبير هذه الأحداث ، ذكر برير حي بهذا الخصوص بالإقامة الطويلة للحسن الثاني بباريز والمحادثات الطويلة التي قام بها مع المسؤولين الفرنسيين ..."

+ الرئيس الشاذلي بنجديد :

" الجزائر بلد عربي ، مسلم ، جزائري ... إن مسألة ان تكون عربيا أم لا غير واردة . لغتنا هي العربية ، ديننا هو الإسلام (...) والتراث الثقافي الوطني ليس حكرا على جهة أو جماعة ..." (تصريح في الجلسة الختامية للندوة حول التخطيط الواردة في (لوموند) بتاريخ ٨٠/٠٤/١٩ و(المجاهد) بتاريخ ٨٠/٠٤/٢٠)

" إن كان هناك من بيننا من نسي الإستعمار فهذا الأخير لا ينسانا أبدا (...) . نقول : نعم للديمقراطية الحق ولا للممارسات الفوضوية ، كما نقول : نعم للتراث الثقافي كمكسب لمجموع الشعب ولا للتراث الذي يستأثر به طرف أو مجموعة . نقول أيضا : نعم للتفتح على اللغات الأجنبية ولا لإستعمال الفرانكوفونيا كتعبير عن الإستعمار الاقتصادي والثقافي " .(تصريح بتاريخ ٣ ماي ١٩٨٠ أمام اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني وارد في (المجاهد) ، بتاريخ

٤-٠٥-١٩٨٠) .

+ مواقف متخذة بمناسبة المناظرة الوطنية حول الثقافة (ربيع ١٩٨١) دون إستعادة كل ماورد بالمناظرة وهو الشيء الذي قدم عنه J.Dejew (١٩٨٢ و ١٩٨٣) خلاصة رائعة . سنكتفي باستعراض مقاربتين "مأذونتين" ومتعارضيتين بشكل واضح والتي وردتا في الصحافة الرسمية . المقاربة الأولى لطالب أحمد من جهة والمقاربة الثانية لـ " المعربين" والتي صاغتها بشكل جيد وبوجه خاص ، المواقف المتخذة من طرف (ع.سعدي) عضو اللجنة المركزية الجبهة التحرير الوطني (و "لجنة الثقافة" . والذي كان في تلك الفترة أضا ، نائبا في الجمعية الوطنية .

بالنسبة لأحمد طالب ، وزير الشؤون الخارجية :

" هنالك إمتزاج بين الساكنات دام قرونا عديدة (...) على أية حال ، إن كان هنالك عربوفونيون وأمازيغوفونيون على مستوى اللهجات ، فبإمكاننا القول ، بهدوء أيضا ، أنه لجهة أصولهم وأسسهم الثقافية ، فإن الجزائريين هم عرب – أمازيغيون (...) يتعين كذلك أن تكون هنالك مراكز للدراسات الأمازيغية في بعض جامعاتنا وأن تشجع دراسة لغات كالإغريقية واللاتينية والفارسية والتركية من طرف بعض الجزائريين (...) لايجب أن تتعارض اللهجات مع اللغة الوطنية واللغة الوطنية ليست في حاجة – حتى تنمو – الى إختفاء اللهجات ..."

- رد على هذا التحليل الدقيق أو بالأحرى المفتوح ، للتو ع. سعدي (الذي هو كذلك جامعي) في جريدة (الشعب بتاريخ ٤-٥ ابريل ٨١) قائلا :

" الأمازيغ ذوو أصل عربي إثنيا وثقافيا " .

نجد إسهابا مغريا لهذه النظرية في كتيب بالعربية لـ عثمان سعدي (١٩٨٣) بعنوان (عروبة الجزائر عبر التاريخ الجزائر العاصمة) ، وهو عنوان لا لبس فيه هذا الكتاب كله خلط وتزييف للحقائق وجهل وتقديرات عشوائية ، وهو بمثابة مختصر لاستيهامات العروبية الجزائرية ، وهو بالإضافة الى ذلك "مأذون" لأن كاتبه عضو اللجنة المركزية التحرير الوطني ولجينتها الخاصة بـ "الثقافة" . كان نائبا سابقا في الجمعية الوطنية الجزائرية .

نجد في هذا الكتاب خليطا عجيبا من الاستدلالات الهذيانية بكامل الصراحة ، وتماثلات معجمية وإشتقاقات لغوية عجيبة تنزع الى "البرهنة" على الأصل العربي للقاموس الأمازيغي وكذا اللجوء الى إستعارات معجمية (المفترض أن الأمازيغية قامت بها انطلاقا من العربية) كل هذا للوضع على المقاس لهذه الأطروحة من خلال تلاعبات فجة بالمعطيات الأمازيغية بغرض إعطائها مظهرا عربيا أكثر وإختزال التاريخ الى مجرد روايات خرافية لمؤرخين عرب قروسطيين (من هنا البروز الموسمي للأطروحة المأثورة حول الأصل "اليمني للأمازيغيين) ..

هكذا تتم الإستعانة بما قبل التاريخ ، اللسنيات ، المؤرخون العرب ... بغرض تمرير الأطروحة القائلة بأن الأمازيغيين لم يختلفوا أبدا عن العرب . فالجميع يعلم أنهم أتوا من اليمن أو فلسطين وأن لغتهم وكتابتهم تنحدران من لغة وكتابة الساميين ، أي العرب . التعريب إذن ليس سوى عودة الى الحظيرة الأصلية التي أبتعد عنها الأمازيغيين ...

إن هذا الخطاب الذي يأخذ به في الغالب ، الجامعيون يعطي صورة مروعة عما آلت إليه الجامعة الجزائرية ؛ إذ تأخذ الظلامية ومعاداة الحقيقة مكان المعرفة . إن المثقفين ذوي التأثير والقريبين من المستويات من المستويات القيادية هم الذين يتصرفون بكل حرية في الجزائر – من

إلقاء المحاضرات الى كتابة المقالات الصحفية - لا لشيء إلا لكون كل وسائل الإتصال مفتوحة في وجوههم ، بغرض إخبار الشعب ، بالأصل العربي للأمازيغيين ؛ ومن ثمة سلامة سياسية ، التعريب وضرورة القضاء على الآثار المتبقية من الأمازيغوفونية .

فمار (Mar) ولسينكو (Lyssenko) - في شكل عربي إسلامي - ليسا مستبعدين حسب هذا المنطق .

+ الرئيس الشاذلي بنجديد :

في إستجواب له مع الأسبوعية (باري ماتش) (عدد ١٦٩٧ - ٤/ ٨١/١٢) تبنى بتجديد موقفا ينحو ، بشكل ملحوظ ، منحى الأطروحة "العروبية" "لعثمان سعدس" نافيا إستقلالية الأمازيغية بالنسبة للغة العربية ، وهي الأطروحة التي تم تطويرها بعد بضعة شهور من خلاصات "المناظرة الوطنية حول الثقافة" وهو موقف ذو أهمية خاصة لأنه يشكل شرحا صريحا - ولايمكن أن ننتظر صدوره عن مستوى "مأذون" أكثر من هذا - لـ "القرارات حول الثقافة" المنبثقة عن اللجنة المركزية ، وهي القرارات المعروفة .

باري ماتش : " لكن هنالك عرب وهنالك أمازيغ؟

- الرئيس : " هل بإمكانكم إقامة الدليل العلمي على ذلك ؟ ستكونون في هذه الحالة مضطرين للجوء الى المعيار اللغوي لاغير . لكن هل هذا كاف ؟ علمنا التاريخ أن مجموع المنطقة كانت تتسمى البلاد البربرية (la barbarie) وهو تعبير استعمله الرومان لنعت سواهم ، وهو تعبير قدحي .

لا أبتغي الدخول في التفاصيل الأكاديمية والتاريخية . تعرفون أن البعض يقول بأن أصل الأمازيغيين هو اليمن ، مستندا في ذلك على

كـون ثلثي الكلمات المستعملة فـي اللهجات الأمازيغية ذات أصل عربي أولـها جـذور عـربـيـة (...)

هنالك أمة تشكلت عبر قرون . حققت نضجها في الحضارة العربية الإسلامية . وشاركت في إنتصارات هذه الحضارة . هنالك لغة وطنية هي لغة حضارتنا والتي هي بمثابة بطاقتنا الوطنية الثقافية . هنالك تراث شعبي ينتمي الى كل الجزائريين . كيفما كانت جهاتهم الجغرافية . ليس لأحد الحق في إحتكار هذا التراث . على أي . لايمكننا فهم وتحليل جيد الفنون واللهجات الشعبية دون إستعمال اللغة العربية " .

المؤتمر الخامس الجبهة التحرير الوطني (جفير ١٩٨٣) : الرئيس الشاذلي بنجديد في كلمة الإفتتاح بتاريخ : ١٩-١٢-١٩٨٣ . المصدر الثورة الأفريقية . عدد ١٠٣٥ . تاريخ : ٢٣-٢٩-١٩٨٣ .

" حدد الرئيس بنجديد المفهوم الجزائري للمجتمع الإشتراكي المدرج في الميثاق الوطني . مشيرا الى أن بعض العناصر تحاول - تحت مختلف الأقنعة الايديولوجية والإثنية والجهوية - تقسيم الشعب الذي يشترك . لمرات عديدة . في تاريخ عريق . شعب مؤمن بجذوره وحضارته العربية الإسلامية (...) ثورة شعبية ووطنية أصيلة ذات روح إسلامية ومتشبثة بالثقافة العربية مع اتجاهها صوب الحداثة والإشتراكية ".

إن شرح كلمة الرئيس الذي أوردته إفتتاحية "الثورة الإشتراكية" (٥١٠٠) ليس خاليا من الفائدة ؛ لأنه يضفي عليها صبغة عروبية بشكل ملحوظ :" إن الثورة الجزائرية ثورة وطنية . إسلامية في روحها . إشتراكية في مسعاها وعربية في تعبيرها (...) "

أما بخصوص اللغة وإنتماء الجزائر الى الأمة العربية والمساهمة الحاسمة للشعب الجزائري في إنتعاش الحضارة العربية الإسلامية التليدة ، فهي كلها عناصر كافية لكي تدافع الجزائر العربية كأداة للتعبير وناقل للثقافة .

(...) تعريب .. إصطلاح غير ملائم ، لأننا لا نعرب العرب ، أو حتى أقل من ذلك شعبا يتماهى مع الأمة العربية والذي هو جزء منها لايتجزأ ."

وبشكل طريف ، يكون التقرير الختامي لبنجديد في نفس المؤتمر حاملا لإيقاع مختلف بشكل محسوس ؛ إذ سيقوم فيه الأمازيغي بدخول قوي الى تاريخ البلد . إن هذه الوثيقة هي التي لوحظت وأعتبرت من طرف الملاحظين كافتتاحية . سنجد النص الكامل لهذا التقرير في "الثورة الأفريقية" (عدد ١٠٣٦ ، ٣٠/١٢-١٩٨٣- ٥/١٠-١٩٨٤ تحت عنوانين : (مفهوم الثورة الثقافية (,) الإسلام وإسهامه الحضاري) .

تندرج هذه الوثيقة ضمن توجه تحليل طالب احمد (حيث لوحظ أنه تمت إستعادة صياغات معينة بكل بساطة ؛ انظر فوق): وتحمل سلفا إرهاصات الشكل المعدل للميثاق الوطني لـ ١٩٨٦ . بل تذهب أبعد من الميثاق نفسه بخصوص الوجود والمكانة الحالية لـ "اللهجات المحلية والثقافة الشعبية" :

" هكذا بقيت مشكلة أصولنا التاريخية في الظل (...) إن المبادرة الإستعمارية الجديدة الى إثارة المشكلة (الأمازيغية) لم تكن تمليها البتة أي هم في البحث عن الحقيقة التاريخية أو الدفاع عن ثقافة مقموعة ، كما يزعم الإستعمار ذلك . يجب إذن على الثورة الجزائرية أن تضع في مقدمة أهدافها تقوية الهوية الثقافية للشعب الجزائري (...) يتعين أيضا إبراز دورهم (أي الأمازيغ) في إنتشار الإسلام

بأفريقيا وجنوب اوربا . ويتعين أخيرا إبراز مسألة تبنيهم للغة العربية كلغة دين ، ناقلة حضارة وعلم ؛ وأنه بفعل كل هذا - أكتسبت اللغة العربية محتوى ثقافيا مفرغا من أي قمع ذي طبيعة عرقية (...) لسنا بحاجة الى إعادة تأكيد أن مجيء الإسلام الى هذه البقاع كان في حينه ثورة حقيقية ذات طابع شمولي . فالقادة الأمازيغيون تبنوا بسرعة ، وبعد المواجهات الأولى طبيعة الديانة الإسلامية (...)

ومع ذلك ، فلا أحد ينكر أن الإسلام - وبالرغم من إعتماده الأساسي على اللغة العربية - لم يحارب أبدا اللهجات المحلية ولم يصر على محوها (...) بل إن اللهجات المحلية اغتنت من جراء إتصالها باللغة العربية ، حيث أقتبست منها عددا كبيرا من الكلمات وتطورت في ظل العلوم الإسلامية الى الحد الذي أصبح فيه من الصعب الدخول في حميمية الأدب الشعبي دون تمكن من اللغة العربية ومعرفة بالمفاهيم الإسلامية .

إن اللهجات الموجودة حاليا بالجزائر لا تعكس أي تمايز عرقي ؛ ومع ذلك فهي تترجم واقعا إجتماعيا مرتبطا بشكل وثيق ، وفي نفس الوقت ، بالتطور الذي يمليانه التاريخ والجغرافيا ..."

في هذا الخطاب الديداكتيكي جدا، للأمازيغ فيه حضور قد يفاجيء البعض إن طرحت من خلاله اللهجات والثقافات الشعبية بشكل دقيق وحصل الإعتراف بها . لكنه إعتراف محصور في التاريخ القديم أو الإطار الإسلامي: إسمنت الوحدة ثم داخل البوتقة العربية .

إنها الأمازيغية التي أنبثقت منه الأمة الجزائرية المحددة بالديانة الإسلامية واللغة العربية .

مواقف بمناسبة قضية الجامعة الجزائرية لحقوق الإنسان (١٩٨٥-

(١٩٨٦)

جامعة "متمازغة":

سنرجع بخصوص هذه الحلقة الى محاولة التحليل التي قمت بها والتي نشرت في حوليات "أفريقيا الشمالية" (١٩٨٧/ب) نذكر فقط بأن هذه المنظمة المستقلة أنشأت في يونيه ١٩٨٥ من طرف مجموعة من الأشخاص من بينهم أمازيغوفونيون ومناضلون ثقافيون أمازيغيون الذين كانوا يمثلون الأغلبية بشكل واضح . ولقد استتبع أمر إنشاء هذه المنطقة ، مباشرة ، إدانة وإتهامات لاذعة من طرف السلطات (وموجة من الإعتقالات التي أفضت الى محاكمات أمام مجلس أمن الدولة بتهمة "المس بأمن الدولة" بدجنبر ١٩٨٥)

Algerie Achialite ، عدد ١٠٣١،١٨-٢٤/٠٧/٨٥ :

تحت عنوان "نادي إنسانوي:

"(...) هذه المرة ، تزينوا بلباس إنسانوي " لبس يكون إنسانويا من يريد ! وبالأخص عندما يتعلق الأمر بنزعات سخيفة مستعدة لإمتطاء صهوة أي حصان شريطة أن يكون موجها ضد بلدنا . ثلة من الناس مكونة من خصوصانيين ذوي صيت ، أصحاب جنح متكررة ، معارضون علنيون للوحدة الوطنية . إن هذه الفدية ليست فقط أكذوبة من النوع الرديء .

ككل اللبوسات السابقة ، يبدو أن فكرة "النادي" الجديد ابتكرتها أو تكفلت بها مصالح خاصة تريد ، بالتأكيد، أن تجعل منها " سلاح حرب" ضد الجزائر وشعبها ومؤسساتها للمساس بثورتها ووحدتها (...)

لكن بلدنا سيعرف ، كما عرف في الماضي ، كيف سيواجه هذه التهديدات الجديدة فقد برهن على ذلك في مواجهة قلاقل عدد من العملاء و"واضعي القنابل" آخرين عند أقدام جدران جريدة "المجاهد" . سيعرف كيف يقوم بذلك بحزم اذا أستدعت الضرورة ذلك ..." (إفتتاحية موقعة : R-E)

الرئيس الشاذلي بنجديد :

"أكد رئيس الجمهورية (بعد ذلك" أن الجزائر - وبحكم بعد ثورتها - تزعم مصالح عدد من القوى الأجنبية التي تعمل جاهدة على خلق مشاكل هامشية لها (...) هذه القوى وجدت لها صدى لدى عناصر ذات عقليات رجعية . ومع ذلك ، فالثورة الجزائرية قوية ويقظة وقادرة على إفشال كل محاولات المس بوحدة صفوف الأمة "

(الدورة ١٥ للجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني ، ٨٥/١٢/٢٨ بتاريخ ٢٩-٣٠/١١/٨٥).

" هنالك مجموعات أخرى تجعل من نفسها بطلة النزعة الأمازيغية . وهنا أتساءل عمن هو أمازيغي وعمن هو ليس كذلك في هذا البلد . نرفض ، بشكل قاطع ، هذا الإصطلاح الذي ألصق بنا في زمن مضى".

هذه المعزوفة تتغنى بها ، في واقع الأمر ، عقليات رجعية محرضة من طرف الإستعمار من خلال سياسة "فرق تسد" إن الجزائر واحدة . ولقد أتيحت لي الفرصة يوما لأقول بأنني جزائري عربي الإسلام . أعتقد في ذلك وأعتز به . الهدف إذن من كل هذا هو تقسير الأمة"

(التقرير المقدم أمام المؤتمر الإستثنائي بجبهة التحرير الوطني "المجاهد" بتاريخ ١٩٨٥/١٢/٢٦).

كما نعاين ذلك من خلال كل هذه التصريحات ، فإن التأرجح ملحوظ سواء على مستوى الإجابة السياسية المباشرة على التحرك الأمازيغي أو على صعيد الإجابة المذهبية عليه. على المستوى الأول ، بتأرجح المسؤولون بين الإتهام المتسرع وإغراء الحوار "البناء" يحصل هذا في إطار المستويات والتوجهات الرسمية . أما على المستوى الآخر ، فيترددون بين النفي المطلق ("نحن عرب ومسلمون") . وأخذ ما في الحسبان للأمازيغية " و"التراث الثقافي الشعبي".

المداومة

لكن من وراء هذه التغيرات الظرفية فإن تحليل النصوص المؤسسة الكبرى كتحليل خطاب الشخصيات السياسية أو الصحافة يكشف ، في الواقع ، إستمرارية كبيرة . وإن هذه المداومة تضرب بجذورها في أسس الحركة الوطنية الجزائرية نفسها ؛ وبالأخص في المذهب الذي أنتجه التيار الإصلاحي لجماعة العلماء (مراد ، ١٩٦٧ وبالأخص ص/٣٥١-٣٧٢) الدفاع عن الإنتماء العروبي).

سبق وإن وجدنا لدى مفكرين متشيعين لهذا التيار ، وبشكل خاص ، عند (الميلى : ١٩٢٨/١٩٣٢) صياغات حول الأمازيغيين سوف لن تجسد مثلاتها بالميثاق الوطنى الجديد (١٩٨٦) أو تصريحات الرئيس الشاذلي .

ففي الواقع ، إن الجزائر القومية ثم الرسمية أختارت قبلتها منذ زمن طويل ولم يحدث لها أن حادت عنها اللهم إلا ما كان من الجزئيات في الأساليب التي تصاغ بها الصياغات حول هذا الموضوع . لقد كان الأمازيغ موجودون بل لقد كان بإمكانهم أن يكونوا من كبار المقاومين للمحتل الأجنبي الروماني ، بطبيعة الحال ؛ لأن "الآخرين" : الفينيقيون، العرب والأتراك ليسوا محتلين أو لم يكونوا كذلك تماما . لقد أعطى

كلا من (تاكفاريناس) و (يوكرتن) ذلك النفس الوطني الذي قاد الجزائر المعاصرة الى الإلقاء بالفرنسيين خارج البلد . إن أسماء كـ(يوكرتن) و (ابن باديس) و (عميروش) تندرج كلها ضمن لهذه التلوينة القومية بل وحتى (ماسينسيا) - الذي كان من المفروض أن يكون عرضه للأقصاء بسبب تحالفاته الإنتهازية مع روما - سجد مكانه في هذه السلسلة . في حين يتم "القفز" بطبيعة الحال . على أسماء كـ (الكاهينا) و(كوسيلا) . أما (ماسينيسا) فإنه .. يجسد قدم ودوام الدولة والأمة الجزائريتين في مواجهة الأجنبي النافي (negateur) .

لكن التاريخ الحقيقي الفعال ، يبدأ عندما نطق أول أمازيغي بشهادة الإيمان الإسلامي . منذ (ابن باديس) الى الميثاق الوطني الجديد ، من (ابن بلة) حتى (الشاذلي بنجديد) حصل اتفاق كامل على هذه النقطة . بل إن فئة من المندفعين الإراديين يتحدث هكذا : إن الحدث الفريد والولادة الحقيقية للجزائر والمغرب الكبير ، النور والخط التاريخي تمثل كل هذا في اللحظة التي دخل فيها الأمازيغيون حظيرة الإسلام . الإسلام والعروبة الذي لايمكنها أن ينفصلا .

" من أبتعد عن اللغة العربية فقد أبتعد عن عبادية الله ، ومن أبتعد عن عبادة الله فسيناله عذاب شديد ". هكذا قالها علماء الثلاثينات بصراحة بمناسبة صدور الظهير البربري .

أكيد أن الأمازيغ كان لهم وجود ، لكن كان ذلك في زمن غابر . إن لقاءهم بالعرب أقنعهم ، فورا ، بالتخلي عن هويتهم الخاصة ؛ والتي كانت - والحق يقال- فقيرة والتي بدأت ملامحها ترتسم بالكاد ! نجرأ - بالكاد ---- للحديث عن مقاومة أمازيغية للعرب ... كان للأمازيغ وعي مبهم بكون لغتهم وثقافتهم الخاصيتين ليستا في مستوى يضمن لهم ولوج عالم الكونية والتاريخ لهذا انصهروا في العروبة

وصاروا عربا !

كان للأمازيغ وجود - تمت أسلمتهم وتعريبهم . نحن عرب ومسلمون هذا هو ثابت الخطاب الرسمي . فلقد حسم في أمر الهوية الثقافية واللغوية للبلد منذ قرون . فالسياسة الثقافية واللغوية التي يتعين على الحكم وضعها حيز التنفيذ ، لايمكن أن تكون إلا سياسة التعريب ، وبشكل أكثر عمومية ، سياسة تكريس الإنتماء العربي الإسلامي . أما العربية فهي ، بطبيعة الحال ، اللغة الرسمية والوطنية لكل الجزائريين .

سيكون للأمازيغية إذن مكانها ، لكن في كتب التاريخ (القديم) وفي المتاحف (أسلافنا الأمجاد!) ، وإستقبالا في الحفلات الفولكلورية وفي الدراسات الأكاديمية المتخصصة . إننا نتبين فعلا - في الأوساط والخطابات الأكثر تفتحا - آثارا للإنتماء الأمازيغي للمغرب الكبير ومن الأهمية بمكان دراستها ووضعها بداخل واجهات المعاهد أو على رفوف المكتبات المتخصصة قبل إختفائها النهائي الذي لن يتأخر بإمكان الأمازيغي واللغة والثقافة الأمازيغيتين إذن أن يكونوا - ضمن شروط مراقبة دقيقة وتحييد - موضوعا للدراسة .

إن تدقيقا من هذا النوع هو الذي نجده عند رجل كالطالب أحمد الذي صاغه بوضوح كبير وبإسترسال معين . لكن التعريب ، في العمق شيء لا رجعة فيه ومكتمل عمليا . أما البقايا المتبقية من الإنتماء الأمازيغي التي بإمكاننا ملاحظتها ، هنا وهنالك ، فهي مدانة من قبل التاريخ .

إن بعض الملاحظين الأجانب (وبخاصة بالطا:١٩٨٣) كتبوا ما مفاده أنه حصل تقدم بخصوص الإحالة الى الأمازيغيين في الميثاق الوطني الجديد ، أو عندما توسع الرئيس الشاذلي في خطابه حول "

أسلافنا الأمازيغ" أمام مؤتمر جبهة التحرير الوطني (١٩٨٣) لكن يتعلق الأمر جيدا . وبالتدقيق بـ "أسلاف" . أناس من الممكن الإعتزاز بهم بل والإنتساب إليهم – مادام ذلك لا يلزم في شيء – إلا أنهم أناس اختفوا منذ زمن طويل لانه وفي الوقت الحالي وبخصوص الهوية الحالية للجزائر ؛ ليس هنالك أدنى شك ولا مراء في : "نحن عرب ومسلمون !" : أو كما يحلو للرئيس بنجديد " نحن جزائريون عربهم "الإسلام" !".

إن الإثبات الأساسي يظل هو هو لم يطله تغيير منذ بدايات الحركة الوطنية . ومن الخطأ الفادح – أو من الجهل بمصادر الوطنية الجزائرية – أن نرى في هذا تجديدا . وبالأحرى تفتحا سواء في خطابات بنجديد أو في الميثاق الوطني الجديد .

إن التنازل من صنف بلاغي محض لاأثر له يذكر على السياسة الثقافية واللغوية للبلد . تلك السياسة التي يحددها الشعار الثلاثي : عروبة . تعريب . نزعة عربية إسلامية . لـ "أسلافنا الأمازيغ" في الجزائر الحديثة . تقريبا . نفس الدلالة الملموسة التي كانت لشعار "أسلافنا الغاليون" بفرنسا ؛ أي لا دلالة . على الإطلاق . إلا لعلماء الحفريات.

(عنان أمازيغن أردغ إدبنان) = لايريدون من الأمازيغيين الا الذين هم في قبور ما قبل التاريخ " هكذا كان يقول لي . وبصراحة . واحد من أصدقائي الطوارق ...

وحدة عربية – أمازيغية . وحدة عربية – إسلامية . وحدة عربية . وحدة وطنية . وحدة ثورية ... دائما في صيغة الجمع . يبدو أن التنوع غير مسموح به . أما عنف الدولة فمشروع لإعادة الضال الى جادة الصواب .

هناك ثابت آخر : الآخر . ذاك الذي يزعم أن آخر أو لازال كذلك

هو بالضرورة ، فاقد لرشده و أو مضلل من قبل قوى خارجية . فهو لايعدو إحدى أحتمالين : فإما أن ينساق وراء نوايا سوداء لايفصح عنها (كالتعطش الى الحكم ، اللهاث وراء الربح أو الدفاع عن إمتيازات مهددة) ؛ وإما أنه مغرر به من طرف قوى خفية (أجنبية بالتأكيد).

وها هنا بالضبط ، ومن خلال الإتهام المخزي أو اللجوء الى العنف الكلامي والجسدي ، نصادف مجددا . وبالتمام إرث التقليد الجذري والشعبوي للحركة الوطنية ، تقليد حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية - جبهة التحرير الوطني ، الذي وصفه محمد حربي بشكل جيد . إن الخطابة هي ذاتها على الأقل منذ ١٩٤٩ .

إن مناضلي حزب الشعب الجزائري - الحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية الذين كانوا يدعون في ١٩٤٨ -٤٩ الى "جزائر جزائرية" تعترف للإنتماء الأمازيغي بمكان له ، تمت إدانتهم كانشقاقين ، كعملاء للإستعمار الفرنسي وعاملين على إقبار الوحدة الوطنية ومن ثم حصل إقصاؤهم وملاحقتهم إن لم يتم تصفيتهم .

في ١٩٦٣ ، كانت الشخصيات النادرة التي تطالب بالحد الأدنى من الديمقراطية وإحترام القانون تتعرض للتشهير باعتبارها ليست إلا جهويون خطيرون يهدفون الى بث الفرقة ورجعيون يتحركون في إرتباط وثيق بالإمبريالية والإستعمار الجديد .

منذ ١٩٨٠ ، نفس التحاملات هي التي تنسج أعمدة الصحافة وتعلو التصريحات الرسمية ، نفس اللغة العسكرية :" رص الصفوف" نفس الإتهامات لـ "خصوم الوحدة الوطنية" "خصوم الثورة " "أتياع الرجعية" ؛ نفس الإدانات لـ "عملاء الأجنبي" الامبريالية والإستعمار الجديد" عندما لايكون الأمر هي "المخابرات السرية الأجنبية".

ويبلغ الرد القاضي بسحب الشرعية أوجه مع استعمال تقنية "تحويل الكلم عن مواضعه" إذ أن المطالبة ليست كما تزعم أنها أياه" أي طلب بالإعتراف اللغوي والثقافي . إنها ليست إلا "قناعا" و"حجابا" لقوى أخرى ومصالح أخرى لاتستطيع أن تعلن عن نفسها . يتعلق الأمر بالفرانكوفونية أو البورجوازية . ليست هنالك من مشكلات واقعية بخصوص مسألة اللغة أو الثقافة بالجزائر . لاوجود إلا لمناورات تقوم بها تكتلات معادية للجزائر المستقلة الإشتراكية ، والتي سوف يتمكن الشعب الموحد وراء قيادته الثورية من كسرها .

بشكل طريف ، يلاحظ أن سحب الشرعية من خلال ما أسميته بـ "تقنية تحويل الكلم عن مواضعه" ليس فقط من فعل الخطاب الإيديولوجي أو السياسي الرسمي الجزائري ؛ بل نجد هذا الميل حاضرا أيضا ، وبشكل ملغوم ، في الأعمال الجامعية ذات الأصل الجزائري بوجه خاص (قداش ، مراد...) . فإذا وضعنا جانب الحالة الإستثنائية جدا التي تمثلها كتابات محمد حربي ، فإن المسألة الأساس التي طرحت ولازالت من طرف "التيار الأمازيغي" بالجزائر – أي مسألة الإعتراف الآن وهنا باللغة والثقافة الأمازيغيتين كوقائع سوسيولوجية ومكونات كبرى للهوية الوطنية ، مع كل ما يترتب عن ذلك على المستوى المؤسساتي ، بما في ذلك الدستوري – أقول فإن المسألة الأساس هذه كان نصيبها دائما وعمليا هو الطمس من قبل المحللين . إن المشكل المبدئي – الأخلاقي والسياسي و يختفي عند الجميع لصالح إعتبارات حول الشروط التاريخية ، القواعد الإجتماعية لبروز هذه المطالبة وبإنتظام ربط المسألة بأسباب خارجية :" فرنسية انخب القبائلية" . آثار "السياسة البربرية لفرنسا"... نعاين ، في المحصلة ، دون أن نفاجأ . أن الجواب الشامل للنظام الجزائري على " المسألة " يندرج بالكامل ضمن تقليد الحركة الوطنية وداخل فضاء ايديولوجي تؤطره عقيدة

الإصلاحيين المسلمين لفترة الثلاثينات وكذا المعالجة السياسية التي خصصت لهذه المسألة من طرف التيار "الشعبوي الثوري" الذي جسده حزب الشعب الجزائري والحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية .

إن الأمازيغي " ذلك المخفي والغير مسمى . عندما يفرض المجتمع ضرورة أخذه في الإعتبار فإنه يحنط في التاريخ القديم و أو يوضع على رفوف متاحف ومعاهد الفنون والتقاليد الشعبية .

وفي كل مرة ينوي فيها التدخل وأخذ مكانه في حاضر ومستقبل الجزائر . ينظر إليه كشيطان . ككائن هلامي عامل لحساب قوى الشر ويتعين تمريغه على الأرض . *

---

* ينص البند ٢٧ من الميثاق العالمي للحقوق المدنية والسياسية (منظمة الأمم المتحدة ١٩٦٦) الذي وقعته الجزائر بتاريخ ١٠-١٢-١٩٦٨ على ما يلي :

"في الدول التي توجد بها أقليات إثنية . دينية ولغوية ليس من الممكن حرمان الأشخاص المنتمين لهذه الأقليات من حقها من ممارسة حياتهم الثقافية الخاصة

وممارسة ديانتهم أو استعمال لغتهم الخاصة بهم هم والجماعات التي ينتمون إليها ".

الأمازيغية في الجامعة الجزائرية

خطاب تفتح ؟

لكن قد يعترض معترض قائلا : أليس هناك . ومنذ ١٩٨٠ أخذ في الحسبان للبعد الأمازيغي في الجامعة الجزائرية ؟ وهذا الإعتراف الأكاديمي المعلن . بشكل واضح ولمرات عديدة . من طرف مسؤولين على مستوى عال في الدولة . أقول أليس أعتراف كهذا . سلفا . مكسبا إيجابيا "تفتحا"؟

بدأ التسويف في ١٩٨٠ -١٩٨١ - ففي ١٩٨٠ . وفي مناسبات عدة . أخذ عبد الحق بريد حي وزير التعليم العالي آنذاك . العهد على نفسه - وأمام الملأ . وبالأخص أمام هيئة التدريس بتيزي ووزو - لخلق "إطار بحث وتكوين في اللغات والثقافة الشعبية " بالمركز الجامعي بتيزي ووزو (وبالجزائر العاصمة) سيكون لهذه الوعود المتكررة صدى أكيدا لكونها ستستعاد من قبل الصحافة الدولية . (كجريدة Monde Le) بتاريخ ¾/٥ ماي ١٩٨٠) .

سنة بعد ذلك . وبمناسبة "المناظرة حول الثقافة " لربيع ١٩٨١ (أنظر الفصل ٨) طرح بعض رجال السياسة الذين يتمتعون بسمعة ثقافية (وبالأخص أحمد الطالب و مصطفى الأشرف) . بالتدقيق . اوجها يرمي الى التكفل بالمجال الأمازيغي داخل الجامعة الجزائرية : بل إن (أحمد الطالب) الذي كان أيضا وزيرا للشؤون الخارجية . بعد ذلك . عبر بوضوح عن أمنيته في أن يرى "مركزا للدراسات الأمازيغية في بعض جامعاتنا ..." (المجاهد ٢٢ و ٢٤ مارس ١٩٨١).

أعتقد بحق ، أن يجسد كل ذلك قد تحقق بالفعل لما أعلن (أبريدحي) بتاريخ ٨١/٩/٢٣ عن نيته في إحداث أربع "شعب للثقافة واللهجات الشعبية " في الجامعات الجزائرية (الجزائر العاصمة، وهران ، قسطنطينة ، عنابة) . إلا أن معاينة أولية موحية تفرض نفسها للتو . فتيزي ووزو التي انطلقت منها المطالبة لصالح اللغة الأمازيغية مقصاة - بادي بدء - من حقل تطبيق هذه التدابير ولقد أخذت "لجنة وطنية للثقافة الشعبية " مكانها في الميدان لتثبيت الإجراءات العملية . تبني الباحثون المتخصصون في الأمازيغية (مولود معمري ، نسيب وأنا شخصيا) موقفا بناء وقاموا في هذه الفترة بصياغة اقتراحات موزونة . الإقتراحات التي صلحت كأساس لتصور "الماجيستير في الثقافة الشعبية " الذي تم إحداثه بمقتضى قرار بتاريخ ٧ يوليوز ٨٢ .

لكن تم زرع هذا التخصص داخل معاهد اللغة والثقافة العربيتين مما نتج عنه إفراغ هذا "الإحداث" من محتواه بشكل ضمني . وستقصى الشخصيات الجزائرية القليلة ذات الكفاءة العلمية - وليس فقط الباحثون المتخصصون في الأمازيغية - من هذا التخصص ولن يكون بإمكانها ولا بإمكانهم التدخل فيه أبدا . فاللوبي والحزب - ولا محالة مصالح الأمن - عارضوا كلهم ذلك بكل ما أوتوه من قوة . فلقد أعتبر هؤلاء جميعهم ، وحتى الأقل اشتباها من بينهم في معاداتهم للإختيارات السياسية للنظام ، كعناصر خطيرة في المستقبل ، لسبب بسيط هو كونهم قادرون على تطوير مقاربة موضوعية لقضايا الثقافة - واللغة - وسوف لن يغير في شيء الإحتكامات العديدة الى السلطة التراتبية (عميد ، وزير) واقع هذا الإلغاء .

وقد أسندت ، عن علم ، أمور التكوين في اللغة والثقافة الأمازيغيتين (والعربية الدارجة) الى مؤسسات وأشخاص ، كانوا ،

ولمدة طويلة وبشكل واضح من المناوئين المذهبيين لهذه اللغة وتلك الثقافة . فمن المعروف أن عالم المعربين الجزائريين ، وفي غالبيتهم العظمى ، معاد بعمق لكل ما هو أمازيغي أو عربي دارج ؛ وأن معظم الإيديولوجيين - الموظفين في جبهة التحرير الوطني ينحدرون من هذا الوسط . هذه النبتة المضادة للطبيعة ، هذه "الغرزة المقحمة" لايمكننا ، وبشكل بديهي تماما ، أن تفضي الى شيء آخر سوى هذه الوضعية - المأزق .

ومن هنا الذهاب الى التفكير في أن الهدف المنشود من كل هذه الخطوات كان أصلا هو الزيادة في تشديد الخناق.

سيتابع مسلسل "الوعود" ، "التصريحات" و"الإحداثات" حتى سنة ١٩٨٧ مع إحداث "معهد وطني للثقافة الشعبية" ، الذي تم ٔحداثه بوصفه بتاريخ ١٨-٠٨-٨٤ وأفتتح في فبراير ١٩٨٧ بتلمسان . هذا المعهد الذي هو تحت وصاية وزارة التعليم العالي يضمن تكوينا من نمط (بوسط كراياسيون-Post graduation) . ويهدف الى "المساهمة في الحفاظ على التراث الشعبي الجزائري (...) من تقاليد وعادات وطب تقليدي وفنون شعبية وغناء وشعر ". لتثمين الحمولة الفعلية لهذا الإجراء ، سجل عنه الملاحظات الآتية : فهناك أولا حصره في جهة (بعيدا عن كل جهة أمازيغوفونية ذات أهمية) . ثانيا : غياب كل إحالة الى اللغة ، وأخيرا المدة الطويلة جدا (مايقرب من ٣ سنوات) بين قرار الإنشاء والإنشاء الفعلي . أضف الى ذلك أن المؤسسة الجديدة لم تستدع ، بطبيعة الحال ، أي باحث جزائري معروف متخصص في الأمازيغية .

ليكن واضحا ، أن المشكلة العميقة ، في نظري ، ليست هي مشكلة صدق المواقف المتخذة ؟ أو الالتزامات المتعددة أم لا . هذه وتلك

التي ليست ، على أية حال ، من نفس الطينة . إذ يتعين بكل إنصاف ، التمييز بين تصريحات الوزير المكلف بالجامعة والمتمنيات أو التحليلات الشخصية لمسؤول سياسي معين والذي ، رغم ما قد يكون له من نفوذ، فإنه ليس معنيا بشكل مباشر . إن الحكم الأخلاقي الذي من الممكن إصداره في حق هذا الفاعل السياسي أو ذاك هو، على أية حال ، ثانوي تماما . بل بدقة أكثر ، قبلت عن حسن نية من طرف أصحابها . الأساسي في نظري هو في إعتبار السياق العام الذي تتموقع فيه وما كان لها من مترتبات ملموسة ، أي وظيفتها السياسية الموضوعية .

من المفروض أن نعاين أنه لم تكن لها أية ترجمة على مستوى الوقائع . فالأمازيغية بقيت دائما منبوذة في الجامعة الجزائرية . أما المتخصصون الجزائريون القلائل في الأمازيغية فهم مجبرون على الإغتراب خارج أوطانهم ، أو على الأقل، أن تكون لهم قدم بالخارج للتمكن من متابعة أعمالهم أو "الارتداد" ، أي التخلي عن تدريس تخصصهم . نفس الشيء بخصوص مسألة النشر .

فبالرغم من المحاولات العديدة خلال السنوات الأخيرة في هذا الميدان ، فإنه لا زال من قبيل المستحيل تصور مطبعة علمية أمازيغية بالجزائر .

فمعظم المؤلفات حول الأمازيغية والصادرة منذ ١٩٨٠ – وهي كثيرة ومهمة – تم أقتراحها للنشر و أو التسويق على دور النشر رسمية (OPU , SNED,ENAL) قبل أن تظهر بفرنسا . في كل مرة يعقل هذا دون جدوى. إذ أن الأعمال التي تهم المجال الأمازيغي الجزائري تستمر في الصدور بفرنسا ولا يتم حتى تسويقها ، بشكل عادي بالجزائر .(*)

(*) إنغلاق عنيد على كل مادة أمازيغية هو الشيء السائد إذن ودائما بالجزائر .

تشخيص لعملية الحصر

طريق للبحث المتخصص في الأمازيغية بالجزائر :

بدأت أمارس التدريس في جامعة الجزائر انطلاقا من اكتوبر ١٩٧٣ . ورغم أن أطروحتي لنيل دكتوراه الملك الثالث كانت في موضوع الأمازيغية فإنني درست بها اللسنيات العامة والتطبيقية . ومنذ بداية عملي ، حاولت كلما سنحت الفرصة بذلك ، إثارة إنتباه السلطات الوصية الى الوضعية اللامعقولة ، وضعية الإقصاء التي توجد فيها الأمازيغية في الجامعة الجزائرية منه لوجهتين العملية والبيداغوجية . ومنذ ١٩٧٣ حتى ١٩٧٧ أقترحت - عبثا ولمرات عديدة - دمج الأمازيغية في شعب محددة ، حيث بدا لي حضورها ضروريا بشكل بديهي . يتعلق الأمر بإجازة الاورطوفونيا ، التاريخ POST graduation مادة اللسنيات . كانت تجربتي الأولى في هذا الميدان تجربة نموذجية وتختصر لوحدها، عشر سنوات من الكفاح داخل المؤسسة الجامعية الجزائرية .

بعد أن تم تعييني رئيسا لشعبة اللسنيات بكلية الآداب ، قررت سنة ١٩٧٤ إقامة حلقة دراسية للبحث . ومن بين الموضوعات التي كان يتعين علي معالجتها قضايا عن اللسنيات الأمازيغية التي أقترحت تناولها شخصيا . وبالرغم من الدعم الشخصي الذي قدمه لي العميد في الأيام الأولى لهذه المبادرة ، فإنه تم أستدعائي للمثول أمام مجلس الكلية ، وطلب مني أن أضع حدا لهذه الحلقة الدراسية (قبل أن تبدأ !) كما طلب مني أعرض مشروع حلقتي الدراسية على الموافقة المسبقة للوزارة ... نقيس من خلال هذا الحدث درجة الحصر والإرهاب الفكري الذي كانت تفرضها . ومازالت ، الأوساط المهيمنة

على "الثقافة" و"المعروفة" في حضن الجامعة نفسها .

في ١٩٧٨-١٩٧٩ . وبعد دفاعي عن أطروحتي لنيل دكتوراه دولة – الأولى من نوعها التي يتقدم بها مغاربي في اللسنيات الأمازيغية – أخذت مجددا بزمام المبادرة وقمت بإعطاء مجموعة من الإيحاءات لوزير التعليم العالي . ودائما بدون نتيجة تذكر . وإبان "الربيع الأمازيغي" . من ١٩٨٠ حتى نهاية ١٩٨١ . قمت بصياغة – وداخل إطارات مختلفة – (مركز البحث الجزائري CRAPE وجامعة تيزي ووزو) عدة مقترحات دقيقة وقابلة للتطبيق السريع في أفق دمج الأمازيغية في البحث والجامعة . ستجد ملخصا عن هذه "المساعي والمقترحات- على الأقل الأكثر أهمية من بينها – في الملحق أسفله . هكذا فإنه ، وقبل إنفجار ١٩٨٠ . أثيرت مسألة تدريس الأمازيغية بطريقة دقيقة ومتكررة من طرف جامعيين جزائريين وكذا الوسائل العلمية (البشرية والوثائقية...) الكفيلة بتكفل معقول بالأمازيغية . وكانت كلها جاهزة قبل ١٩٨٠ بسنوات . ولو تم الأخذ في الحسبان لإحدى هذه المقترحات ، فإنه كان من الممكن تفادي توترات عديدة ومواجهات عديدة ومآسي . ولم يكن شأن السلطة السياسية الجزائرية إلا ليكبر نتيجة لذلك .

إبان أحداث القبائل ، طلبت بإلحاح الترخيص بفتح شعبة لتدريس الأمازيغية بالجزائر العاصمة . إلا أنني لم أصادف أبدا ، على كل المستويات التراتبية إلا تهربا من المسؤولية أو إقرارا بالعجز . رفضت إذن القيام بأي تدريس آخر طالما ليس بإمكاني التدخل ، بشكل طبيعي ، في مجال تخصصي . ولأنني كنت المتخصص الجزائري الوحيد في الأمازيغية الممارس ، وقتئذ ، بالجامعة ، بدا لي من الصعب ، أخلاقيا وسياسيا ، الإستمرار في تدريس اللسنيات العامة والفرنسية ، بينما القبائل في أوج غليانها وتطالب بإعطاء الأمازيغية منزلة اللغة الوطنية الثانية .

وبقيت في هذه الوضعية من "الإضراب الفردي" حتى مغادرتي للجزائر في نوفمبر ١٩٨١ .

وطوال هذه الحقبة المضطربة جدا . وبالضبط في ٢٥ شتنبر ٨٠ . تعهد وزير التعليم العالي وقتئذ (أ. بريدحي). وبشكل قاطع . بتعييني في "الأيام القليلة المقبلة " بتيزي ووزو لـ – حسب تعبيره – "إقامة إطار بحث وتكوين في اللغات والثقافات الشعبية" . ولأنه كان تصريحا شخصيا من السيد الوزير وبمبادرة منه . أعتقدت . حينها . في واقع التفتح .

في شهر مارس ١٩٨١ . وبعد معاينتي أن أيا من تلك الوعود لم يتم الوفاء بها . ومصادفتي . في كل مكان . للإنتظارية والجمود . قررت بدعم من الجماعة (le collechf) الثقافية المحلية إفتتاح درس حر للأمازيغية بجامعة الجزائر.

ولقد شكلت إنطلاقة "المناظرة الوطنية حول الثقافة " ظرفية مواتية لهذا النوع من النشاط المستقل الذي يمتاز بصعوبة قمعه بإعتباره كذلك . كان بوسعنا أن نأمل . بشكل معقول تماما . في كون السلطات ستتردد في إرسال مجموعات تدخل بوليسية للحيلولة دون حصول درس هادىء داخل الحرم الجامعي ؛ الذي حظي حتى إنقطاعه بنجاح مؤثر وتوبع من قبل حضور كبير ما يربو عن ١٠٠٠ فرد كل أسبوع في المدرج الكبير لكلية الآداب . طوال مدة هذه التجربة بكاملها لم أتعرض لأي إجراء أو تهديد مباشر . لا من مصالح الأمن ولا من السلطة الجامعية .

لكن سوف يتوقف هذا الدرس بعد ١٩ ماي ١٩٨١ مع إعتقال كل أعضاء الجامعة الثقافية للجزائر العاصمة الذين ساعدوني على تنظيمه وجعلوني بذلك . أقوم به في هدوء . سوف يبرر هذا القمع بعد

ذلك ، قانونيا ، بالمصادمات التي حصلت بين طلبة "متمازغين" وطلبة "إسلاميين بعثيين " الذين هم في الواقع مستغزون من البوليس والحزب ؛ وليس بالمشاركة في تنظيم درس "غير مشروع" الذي لن يرد في صد الإتهام ولم أؤاخذ عليه أبدا - وبشكل رسمي.

لكن اللعبة تمت سلفا . وهذه الاعتقالات - كمثيلاتها التي تزامنت معها في القبائل ، وبالأخص في بجاية - ليست إلا مؤشر إنطلاق لعملية الإستعادة البوليسية التدريجية والايديولوجية للزمام . فوراء هذه الإعتقالات تنتصب ، سلفا ، قرارات اللجنة المركزية حول الثقافة (يوليو ٨١) التي ستكون واحدة من أكبر إحباطات المثقفين الجزائريين . فهذه الوثيقة التوجيهية التي كان من المفروض أن تكون القرار الذي أنتهت اليه "المناظرة الوطنية حول الثقافة" قامت بما يشبه مفعول حمام بارد . فرغم هزة ربيع ١٩٨٠ ، لا شيء تغير في المقاربة الرسمية لمشكلات الثقافة . على العكس من ذلك ، فإن هذه القرارات التي لفتها رؤية بيروقراطية للثقافة بوجه خاص والتي ستكون بمثابة المرجع الأساسي لسنين طويلة - تندرج ، بدون تمييز ، في سياق النزعة العروبية اللامتسامحة . إن المقارنة مع أعمال "الحلقات الدراسية بياكورن" - كيفما كانت حدود هذه الأعمال - فانها ليست في صالح الخطاب الرسمي الحزين . فمن جهة أولى نجد محاولة تأمل شاملة في قضايا الثقافة والهوية الوطنية في كل تعقدها وتنوعها ومن جهة ثانية نجد جردا مضنيا لتوجيهات إداريي الثقافة مصحوبا بإعادة إثبات لاذعة للطابع الإقصائي للغة العربية والإسلام كمرجعيات ثقافية أساسية بالجزائر.

ستتم ترجمة هذا النص - على أي - وبشكل ملموس ومباشر خلال صيف ١٩٨١ مع الإقدام على الحظر القسري لـ " الجامعة الصيفية الأمازيغية " المزمعة بتيزي ووزو في يوليوز - غشت . عند مدخل شتنبر

١٩٨١ . بدت نهاية عدم إمكانية التوصل بشيء ظاهرة وانتصب مجددا - لم تلبي أي من مطالبنا . حتى الأكثر تواضعا من بينها . بخصوص الإعتراف بالأمازيغية . ظلت وضعيتي المهنية مجمدة تماما في ما يخصني . بقيت بدون تعيين ودون إمكانية للتدخل في مجال تخصصي . فهمت إذن أن السلطات تركت الزمن يعمل عمله . بهدف إضعافي وعزلي . ثم الدفع بي الى التنازل عن موقفي المبدئي أو اتخاذ اجراءات في ظرفية تلائمها جيدا . قبلت إذن العرض الذي تقدمت به الجامعة بروفانس وقررت الإستقرار في إيكس (Aix) لتدريس الأمازيغية ومتابعة أبحاثي . ومع ذلك . بقيت منذئذ في علاقة منتظمة مع المكلفين بالتعليم الجزائري العالي . ولقد قمت . لمرات عديدة . بالتقدم بإقتراحات دقيقة لدمج الأمازيغية في إطار الجامعة و /أو البحث . وعبرت عن إستعدادي للمساهمة في التكفل بذلك . وإذا استثنينا الكلمات اللطيفة لبعض المسؤولين الحريصين على إبداء التفهم . لكن العاجزين في نفس الوقت . فإن كل هذه المساعي وعروض الخدمات لم يكن لها أبدا أدنى صدى ملموس الى يومن هذا .

في المحصلة . إن نحن انشددنا الى الوقائع الموضوعية . ورفضنا محاكمة سياسة انطلاقا من تصريحات (ذوي النوايا الحسنة) من رجال السياسة أو الناطقين الرسميين . فإن المعاينة جلية ولا تحتمل أية مشاكسة : إن الأمازيغية مبعدة عن الجامعة الجزائرية .

قد يكون صحيحا أن عددا من العقليات المتفتحة في جهاز الحكم أو حواليه تدفع في إتجاه التسامح . بل والإقدام على جعل اللغة والثقافة الأمازيغيين موضوعا للدراسة . إلا أن هذه العقليات المتفتحة والمتفهمة . التي يحز في نفسها سماع أقوال من قبيل:

" لم يكن للأمازيغيين أبدا أي وجودي " أو " لم يعودوا موجودين

منذ مدة طويلة " . أقول إن هذه العقليات لا تقود السياسة الثقافية والعلمية للبلد . لاتعدو كونها دعامات يتم تقديمها للخارج . ليس لها من وظيفة أخرى - كغيرها من المثقفين الجزائريين - سوى التواجد عبر وسائل الإعلام والجامعة . إنها بمثابة محاور الرأي الدولي . عملاء يمارسون التأثير - سواء كانوا واعون بذلك أم لا - لحساب الجزائر الرسمية .

لقد حلل تدبير ملف " الأمازيغية بالجامعة" منذ ١٩٨٠ ضمن هذا المنظور الأحادي من طرف المسؤولين الذين تكفلوا به والمتمثل في تضليل الرأي العالمي وذلك بالإيحاء بأن المؤسسة الجزائرية مهتمة بهذا القطاع . وتتوخى الجهات الرسمية من ذلك ، دون شك ، تهميش وانتزاع المشروعية من جماعة المتخصصين الجزائريين في الأمازيغية الذين يعملون أو يتابعون نشاطاتهم العلمية بالخارج (أي كلهم !) والتسويغ المسبق إجراءات قمعية - استقبالا . ضد "المتزعمين المتمازغين" الذين يحصل التشهير بهم كمتطرفين ذوي "إلحاحات مغالية . في حين أنهم لم يسبق لهم أن طالبوا - كجامعيين - بأي شيء آخر سوى إمكان العمل في جامعاتهم كمتخصصين في الأمازيغية .*

يتعلق الأمر إذن . وبالضبط . بحملة هدفها التعتيم .

* يشار مع ذلك الى استثنائين راهنين ال (OPU) مكتب الإصدارات الجامعية جلب في ١٩٨٤ بضع مئات من نسخ للكتاب الذي أعدنا نشره : " نصوص نثرية طوارقية " لشارل دوفوكو (١٩٨٤) وفي ١٩٨٨ تمت إعادة طبع " أشعار القبائل " لمولود معمري الذي نشرته في نفس الوقت (la Decouverte بباريز ولا فوميك : (ناشر خاص بالجزائر العاصمة) . إلا أن الربيع لا يكون بظهور خطاف أو خطافين . وهذه الحالات تظل جد معزولة وخاصة لا ترقى الى مستوى تطور ذي دلالة في الوضعية العامة .

ملحق :

مساعي من أجل دمج الأمازيغية في الجامعة الجزائرية (منذ ١٩٧٨) لا يشير هذا الجرد الكرونولوجي الا الى المقترحات المكتوبة الموجهة الى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي . لا أشير الى المساعي العديدة القديمة (معمري : ١٩٧٢-٧٣) أو الداخلية المرتبطة بجامعة الجزائر العاصمة (شاكر : ١٩٧٥ ٧٦...) والتي لم يترتب عنها ابدا أي شيء. لا أطرح أيضا اللقاءات مع مسؤولي MESRS مديرية المدرسين والبحث والمديرية الفرعية للعلوم الإنسانية التي لم تسفر عن وثيقة مكتوبة .

فاتح دجنبر ١٩٧٨ : رسالة الى التعليم العالي والبحث العلمي (ع.رحال) تدعو الى :
دمج الأمازيغية على مستوى الإجازات (الدراسات التوجيهية).
دمج الأمازيغية على مستوى (Post-graduation) داخل نظام الماجستير في اللسنيات أو الانثروبولوجيا الثقافية).

٢٦ مارس ١٩٧٩ : رسالة الى السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي (ع. بريدحي) تستعيد المقترحات السالفة الذكر ونسخ منها الى كل من السيد عميد جامعة الجزائر العاصمة والسيد مدير الدراسات بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

٢ يوليوز ١٩٧٩ : رسالة الى وزير التعليم العالي والبحث العلمي تقترح إدراج تخصص "الأمازيغية" داخل ماجيستير اللسنيات الذي أحدث للتو في الجزائر العاصمة (معهد اللسنيات والصواتية)

٢٤ ماي ١٩٨٠ : تقدم مركز الأبحاث الانثروبولوجية والاثنوغرافية والماقبل تاريخية (CRAPE) وبمبادرة مني، بمشروع ماجيستير في

"اللغات والثقافات الشعبية" يتضمن تخصصا "الأمازيغية".

١٠ يونية ١٩٨٠ : رسالة الى وزير ت-ع-ب-ع تستعيد وتدقق مقترحاتي السابقة : دراسات اختيارية + ماجيستير الأمازيغية.

نسخة من الرسالة الى مدير الدراسات في و-ت-ع-ب-ع . وأخرى الى نائب رئيس العلوم الانسانية في نفس الوارارة وأخيرة الى المسؤولين عن المركز الجامعي بتيزي ووزو . إن هذه الاقتراحات عينها هي التي ستدمج في الوثيقة النهائية للحلقات الدراسية بياكورن التي قام بتنشيطها جامعيو تيزي ووزو في يوليو - غشت ١٩٨٠ (والتي صدرت تحت عنوان : الجزائر : اية هوية ؟ باريز - امدازن ١٩٨١) .

نوفمبر ١٩٨٠ : إستعادة واعداد مفصل مع هيئة التدريس بجامعة تيزي ووزو لمشروع يتضمن ما يلي :
إحداث إطار مؤسساتي للتكوين والبحث في المجال الأمازيغي .
أحداث تدريس ماجستير الأمازيغية
إحداث تدريس إختياري للأمازيغية
قيام فريق بحث في إطار الهيئة الوطنية للبحث العلمي (ONRS)

سيتم تقديم هذا النص يوم ١٥ نوفمبر ١٩٨٠ للوزير من طرف وفد من هيئة التدريس بتيزي ووزو وبعد أن لمح الوزير الى الالتزام الي تعهد به أمامي في ٢٥ شتنبر . أكد أن قيام بنية بحث وتكوين في الأمازيغية سبق أن نوقش معي ويمكن اعتباره كشيء مكتسب .

أكتوبر ١٩٨٠ : اقتراح نص كقاعدة عمل للجنة "التراث الشعبي" الواقعة تحت إمرة و-ت-ع-ب-ع (وهي بنية صرح بها ع.بريدحي. في الندوة الصحفية التي قام بها بتاريخ ٢٣ شتنبر ١٩٨١) ولقد مثل رسميا الطرف الأمازيغي السادة : مولود معمري ، ي . نسيب وأنا

شخصيا .

يناير ١٩٨٢ : كفت لجن "التراث الشعبي" عن الإجتماع بعد عجزها إقرار موقف معين . كانت مواقف وتصورات "المعربين" والمتخصصين في الأمازيغية غير قابلة للتصالح .

يقترح نص أعده كل من م.معمري وس . شاكر وتقدما به الى و-ت-ع-ب-ع مايلي :
إحداث شعبة اللغات والثقافات الشعبية بجامعة الجزائر العاصمة .
إفتتاح ماجيستير "لغات وثقافات شعبية يتضمن اختيارات "العربية" و"الأمازيغي" .
إحداث تدريس للغات والثقافات الشعبية قابل للدمج في كل إجازات الآداب والعلوم الإنسانية .

سوف تستعمل هذه الوثيقة على نطاق واسع لاعداد "ماجستير الثقافة الشعبية " الذي تم إحداثه بقرار بتاريخ ٧ يوليوز ١٩٨٢ والموجود في معاهد اللغة والثقافة العربية بالجزائر العاصمة ، وهران ، قسطنطينة وعنابة (أنظر الجريدة الرسمية بتاريخ ٢٨ شتنبر ١٩٨٢)

الدراسات الأمازيغية

الوضعية والتطورات الراهنة

ظلت الدراسات حول الأمازيغية ، ولمدة طويلة ، تقريبا حكرا على الفرنسيين . كانت أقطابها الأساسية ، حتى حين التخلص من الإستعمار ، هي : باريز ، الجزائر العاصمة والرباط . لم تكن المساهمات الغير فرنسية بهذا الخصوص (وبالأخص الالمانية والايطالية) قابلة ، دائما للتهميش ؛ ولكنها على العموم ، جد متواضعة وأقل استقرارا . فالتقليد العلمي المتخصص في البحوث الأمازيغية لم يوجد سوى بفرنسا لمدة مايربو عن قرن ؛ وهو تقليد يجمع بين البحث والتدريس والنشر ، وقد لعبت كلا من كلية الآداب بالجزائر العاصمة ومعهد الدراسات العليا بالمغرب دورا حاسما في كل الإنتاج المتخصص في الأمازيغية طوال الحقبة الإستعمارية بل إن حتى المؤلفات المنشورة بباريز عند كل من (MAISONNEUVE,LEROUX) أو المطبعة الوطنية هي في الأغلب الأعم من نتاج المتخصصين الفرنسيين في الأمازيغية الذين يمارسون ، بشكل دائم ، بالجزائر أو بالمغرب أو ارتادوا الميدان عبر المؤسسات العلمية بالجزائر العاصمة والرباط .

وقد سهلت هذه الوضعية ، بطبيعة الحال ، موقف الرفض من طرف المؤسسات المغاربية عند الإستقلال لهذا الكم من الدراسات . فقد نظر إليها ، بصراحة وتمت إدانتها من طرف الوطنيين الجزائريين والمغاربة بإعتبارها جزءا لا يتجزأ من السياسة الاستعمارية التقسيمية التي تنزع الى خلق تعارض بين عرب وأمازيغ . مع حصول الاستقلال بلغ الضغط الايديولوجي في هذا الميدان حدا - حتى لدى المثقفين مع الاستثناء البارز الذي مثله كاتب ياسين - لم يكن معه من الوارد ، ولو

للحظة . الاحتفاظ بهذا القطاع داخل الإطارات الجامعية كتخصص علمي يتناول مكونا موضوعيا للواقع السوسيو-ثقافي المغاربي .

صحيح أنه ، ومنذ هذه الحقبة ، أضحت اللاثقافة ، الجهل والثنائيات المانوية هي الصفات التي تسم القرارات المتخذة بخصوص الثقافة والتدريس بالمغرب الكبير. ألم تذهب بعض الأوساط المسؤولة في الجزائر حينها الى حد إثبات أن "الأمازيغيين هم صنيعة فرنسا (أو الآباء البيض)! " ووراء هذه الصياغات الكاريكاتورية نجد فكرة مفادها أن كل اعتراف بالأمازيغية - كموضوع دراسة أكاديمية - غير مسموح به ، لانه يمثل إضفاء للمشروعية خطير على سلامة عقيدة النزعة العربية الاسلامية التي تنفرد بالسيطرة في المغرب الكبير. إن حذف الكراسي الجامعية الخاصة بالأمازيغية في كل من الرباط والجزائر العاصمة ، غداة الاستقلال ، يندرج ضمن هذا التوجه .

يتعين ، بكل إنصاف ، القول بأن الجامعة الفرنسية هيأت ، وبطريقة ما ، وعلى نطاق واسع الميدان . فلأنهم لم يكونوا (وكذلك كان الأمر عمليا) متخصصين محليين في الأمازيغية ولأنهم لم يهيئوا من يأخذ مكانهم بعدهم محليا - بل هنالك شهادات دقيقة تجيز أنهم كانوا معارضين لذلك - فإن المتخصصين الفرنسيين في الأمازيغية تعهدوا عمليا ، حتى نهاية الهيمنة الاستعمارية المعادلة الآتية :

"دراسات أمازيغية = ضيعة فرنسية خاصة ؟ظاهرة استعمارية " بإمكان الأشياء أن تكون على غير ما كانت عليه لو كان هنالك وجود لتأطير مغاربي متين في الأمازيغية .

أما الناشرون المحليون كـ(la typo-litho, baconnier , jaundan carlonnel ...) الذين كان وراءهم مايربو عن قرن من نشر الإصدارات

حول الأمازيغية ؛ فانهم اختفوا مع اضطرابات الاستقلال وتبعثرت ممتلكاتهم . أما لعبة الحروف بأبجدية تيفيناغ التي كانت موجودة بالجزائر العاصمة (توجد أخرى في المطبعة الوطنية بباريز) فسيقوم الجيش الجزائري بتويبها وسيتعيد مطبعة باكونيي .

ففي الواقع ، إن سكوت الدراسات الأمازيغية هو ، تقريبا ، سكوت شامل بالمغرب الكبير ككل ؛ منذ ما يربو عن عقدين ويستثنى من ذلك : ١/ سجل التوثيق الأمازيغي الذي أنشأ سنة ١٩٤٦ بالقبائل من طرف الآباء البيض الذي يتابع ، مهما كان الثمن ، نشر إصداراته (ذات الانتشار المحدود ، فقط من خلال الاشتراك) حول المجتمع والثقافة الامازيغيتين في بداية السبعينات ، أجبرته الضغوطات الادارية والبوليسية على مغادرة القبائل والإقامة بالجزائر العاصمة، ثم على تغيير اسمه إذ أصبح يسمى "السجل الدوري " سنة ١٩٧٣ .

في يناير ١٩٧٧ ، تم حظره بكل بساطة وصودرت ممتلكاته من المؤلفات . (ولازال كذلك حتى اليوم) .

٢/ درس الأمازيغية بكلية الآداب بالجزائر العاصمة الذي سترخص لمولود معمري القيام به من اكتوبر ١٩٦٥ الى يونيه ١٩٧٣ . لكن لم يكن يتعلق الأمر إلا بتدريس تكميلي خارج المواد المقررة ولا يؤدي الى أية شهادة جامعية مستقلة (*) . ولقد اختفى مع تطبيق إصلاح التعليم العالي ، وذلك دون ريب ، لأنه بدأ في استقطاب الكثير من المهتمين ، وبدأ سيصبح شيئا فشيئا ، موضعا لالتقاء الحساسية الجزائرية الأمازيغية .

لنكون شموليين ، يجب أن نضيف عددا صغيرا من الإصدارات المتخصصة التي تصدر تحت إشراف م-ب-ن-أ-ق-ت-وم-ب-ص بالجزائر الصحراوية في الوقت الذي لازالت فيه هذه الهيئات العلمية تحت

وصاية فرنسية جزائرية مختلطة . وتخص بالذكر هنا عملي (جان ماري كورطاد) حول الطوارقية (معجم فرنسي – طوارقي ١٩٦٧ ومحاولة في النحو الطوارقي ١٩٦٩) . ستصدر معظم هذه المؤلفات بفرنسا .

فالمالك الفعلي للمخطوط هو "فنون ومهن خطية" بباريز أما إيداعاته القانونية فموجودة أيضا بفرنسا ؛ في حين أن م-ب-ن-ا-ق-ت و.م ب ص ليسا الا وكيلين .

ومع ذلك ، فإن هذا الإنتاج الجنيني المتخصص في الأمازيغية المتواضع جدا والفالت من المراقبة المباشرة للسلطات الجزائرية لم يكن بدون دلالة ولا بدون لواحق ؛ بل قد يكون هو الذي شكل نقطة إقلاع حقيقية للدراسات الأمازيغية بالجزائر العاصمة : ذلك أنه ، وعند نهاية السبعينات ارتبط م-ب-ن-ا-ق-ت الذي كان يديره وقتئذ مولود معمري بتعاون عدد من الجامعيين الجزائريين الشباب ، منهم لسنيون ، مؤرخون ، انثربولوجيون ومتخصصون في الأدب ، الذين كانوا يشتغلون جميعهم على موضوعات الثقافة الشعبية ، وكان عدد كبير منهم من المتخصصين في الأمازيغية .

بل قد تشكل فريق "الأدب الشفوي" ونظم في يونيه ١٩٧٩ "مائدة مستديرة شفوية" التي يمكن اعتبارها بمثابة الملتقى الأول (والوحيد) المتخصص في الأمازيغية الذي حدث في الجزائر بعد استقلالها .

وقد نشرت أعمال هذا الملتقى بالجزائر العاصمة من طرف مكتب المنشورات الجامعية (١٩٨٢) . انطلاقا من الدخول الجامعي (اكتوبر ١٩٧١) كنت أقوم شخصيا بحلقة دراسية حول اللسنيات الأمازيغية التي كان يتابعها حضور منتظم وشغوف . وصدرت "أعمال"

هذه الحلقات ضمن المنشورات الداخلية لـ م-ب-ن-إ-ق-ت. (عدد ١٢و١٣، ١٩٨١) . نلحظ ، على أي ، وبشكل ملفت ، هذه العودة وهذا "الإختراق " للتخصص الأمازيغي لإصدارات م-ب-ن-إ-ق-ت في تلك الفترة Lوبشكل خاص المنشور الداخلي لـ م-ب-ن-إ-ق-ت ومجلة ليبيكا ابتداء من المجلد ١٩٧٧، III).

إلا أن الآمال التي كان بإمكان هذه الوضعية الجديدة أن تخلفها كانت بدون غد . في ١٩٨٠ ، وإبان غليان الأحداث بالقبائل ، أصبحت الانتقادات ضد م-ب-ن-إ-ق-ت- التي كانت قديمة لكن كتومة الى ذلك الحين – انتقادات منتظمة . فمن داخل هـ-و-ب-ع، ومن داخل المستويات الحزبية انطلق التهجم على هذا "الرعين للنزعة الأمازيغية" ، بل وقد انطلق حتى من داخل مصالح الأمن لتي ضاعفت من تدخلاتها (مراقبة دائمة ، تفتيش ، استنطاقات، تحقيقات متنوعة).

سمح ذهاب مولود معمري الذي أحيل على المعاش بانطلاق عملية "استعادة زمام" تدريجية على م-ب-ن-إ-ق-ن والتي ستنتهي سنة ١٩٨٣-٨٤ بحل بحت وبسيط لهذه الهيئة . فلقد تم التخلي عن الأبحاث في العلوم الاجتماعية وأسند قطاع "ماقبل التاريخ" لوزارة الثقافة والسياحة .

هكذا أصبح م-ب-ن-إ-ق-ت ، الذي وجد منذ بداية الخمسينات تحت الإندفاعة الكتومة ، لكن المسترسلة، لمدرائه المتلاحقين ، مكانا للبحث الأمازيغي الواعد . فلقد تم تجميع توثيق أمازيغي متين ومعظم الشباب الجزائري المتخصص في الأمازيغية يتعاون بداخله حسب المستطاع . لقد أجتمعت إذن كل الشروط الانسانية والمادية بغرض (إعادة) تشكيل مركز للدراسات الأمازيغية فعال وديناميكي بالجزائر حوالي ١٩٨٠ .

وكان إختفاء م-ب-ن-إ-ق-ت (CRAPE) عملية مبيتة للقضاء على هذه الإمكانية .

الميول الراهنة للدراسات الأمازيغية

النزوع العالمي:

فتح منعطف الستينات عقدا مطبوعا بظهور /أو تقوي الأقطاب العلمية الغير فرنسية المتخصصة في الأمازيغية : الدنمارك ، المانيا ، ايطاليا، بريطانيا ، الولايات المتحدة . فلقد تمت مناقشة عدد من الاطروحات تقدم بها أمريكيون شماليون أوروبيون غير فرنسيين (بريطانيا ، المانيا الفيدرالية ، الدنمارك). في السبعينات ، نشر المجموع الشبه الكلي من المؤلفات الأساسية حول اللسنيات الأمازيغية خارج فرنسا (كوبنهاكن، نابولي هامبورغ ، ميشيكان ، لاهاي ، لوس انجلس). حفل إذن في ميدان النشر العلمي تطور سريع . هكذا ، فإن التقليد الفرنسي القديم جدا بخصوص الإصدار المتخصص في الأمازيغية (والذي كان يتخذ له كقاعدة ، في الجزء الأكبر منه ، الجزائر العاصمة والرباط) انهار بكل مافي الكلمة من معنى بعد التخلص من الإستعمار .

صاحب النزوع العالمي ذاك ، وبالأخص ابتداء من نهاية السبعينات ، حركة تنويع في الأطر النظرية للبحث . فالأثر الانجلوساكسوني بدأ يلمس أكثر فأكثر . وحتى إن كانت الفرنسية قد ظلت هي المهيمنة كلغة عمل للمتخصصين في الأمازيغية ؛ فإن عددا من المؤلفات صدرت ، منذئذ بلغات أخرى كالانجليزية على وجه الخصوص ، وأصبح أثر النظريات اللسنية (أو الانثربولوجية) الأمريكية أساسا ملحوظا أكثر فأكثر .

يدل هذا التطور المزدوج على أن الدراسات الأمازيغية بدأت تصبح . أقل فأقل . من استئثار الجامعة الفرنسية وتنحو الى الإندماج في التخصصات الكبرى التي هي في طور التشكل (اللسنيات العامة . نظرية الأدب) وفي تيارات البحث العالمية .

يمكننا . على أي . معاينة تغيير . في اتجاهات عدة . قابل للمقارنة مع هذا في الاثنولوجيا الأمازيغية . ففي بضع سنوات . سيصبح عدد الأعمال الجامعية المناقشة (أطروحات دكتوراة)خارج فرنسا ذا دلالة . بعبارة أخرى . فالدراسات الأمازيغية لم تعد ولاية من بين ولايات الإستشراق الفرنسي .

"النزوع المغاربي": منذ بداية السبعينات والدراسات الأمازيغية مغاربية أكثر فأكثر في ما يخص الرجال . بطبيعة الحال . لاعلا مستوى المؤسسات !

إن السيرورة جلية . بوجه خاص في المغرب . حيث أبناء البلد . عكس الجزائر . لم يكونوا عمليا ذوي تمثيلية . في هذا المجال . قبل الإستقلال . ففي ظرف ١٥ سنة . نوقشت ما يربو عن ٣٠ من أطروحات دكتوراة حول اللغة والأدب الأمازيغيين مرتبطة بهذا البلد (أنظر الاحصاءات الدقيقة اسفله) بالخارج (فرنسا . الولايات المتحدة . انجلترا) من طرف مغاربة يمارسون حاليا في غالبيتهم . بجامعات بلدهم . في الرباط . فاس . وجدة . تعد بحوث الإجازة المخصصة للمجال الأمازيغي بالعشرات ثم بعد ذلك بالمئات . بل لقد نوقشت عدد من الأطروحات حول اللغة والثقافة الأمازيغيتين بالرباط حديثا . وفي فاس ؛ الرباط . وجدة تتناول . بانتظام . حلقات دراسية المجال الأمازيغي في مختلف شعب كليات الآداب .

حاليا . لايوجد دائما أي اطار خاص للتكوين والبحث بالرغم

من الاعلانات الرسمية حول خلق "شعب للدراسات الأمازيغية" بل وخلق "معهد" منذ ١٩٨٠ . أما الأعمال المتخصصة في الأمازيغية فقد تم القيام بها داخل البنيات القائمة سلفا في كليات الآداب (وبالأخص شعبة الفرنسية) التي تقبل "استقبالها". إن المكانة والوضعية الملموسة للأمازيغية في الجامعات المغربية ، إذن متنوعتان جدا وتتوقفان على درجة تسامح المسؤولين المحليين . ومع ذلك فإن وجود جماعة متماسكة من المتخصصين المحليين في الأمازيغية بشكل ، في حد ذاته ضمانة جادة لمستقبل الدراسات الأمازيغية بالمغرب . وتقوية هذه الجماعة المتخصصة في الأمازيغية وهو ، على أي شيء مستمر . إن اطروحات جديدة تناقش كل عام وأخريات هي في طور التحضير صانعة بذلك نسيجا متخصصا في الأمازيغية متكاثف منذ الآن .

أما بخصوص الإصدرارت الأمازيغية . فلنشير الى أن الإصدارات لازالت متواضعة ، أو بالأحرى نادرة بالمغرب؛ مع أنه يتعين الاشارة الى أن عددا معينا من المؤلفات تمكنت من الصدور بشكل طبيعي في بحر الأعوام الأخيرة. نذكر منهاعددا من الدواوين الشعرية بتاشلحيت (أمزال ١٩٦٨ ، موستاوي ١٩٧٦ ايد بلقاسم ١٩٨٦) وقصيدتان بالريفية (الناظور ١٩٧٨ ، ١٩٧٩) وقطعة مسرحية (آسفي ، ١٩٨٣) ومؤلف في السوسيو لسنيات (بوكوبس ، ١٩٧٧) وكذا إعادة طبع للكتاب الأساسي "كلمات وأشياء" لإميل لاموست (١٩٨٣/١٩٢٠) وأعمال الجامعة الصيفية الأولى باكادير (١٩٨٢) والتي حظي فيه المجال الأمازيغي بتمثيل قوي ومجلة "أمازيغ" التي تمكنت من إصدار أعدادها العشرة قبل اختفائها في ١٩٨٢ . أكثر من هذا ، فالأمازيغية يتم تناولها بانتظام ، في عدد من المجلات الجامعية كـ : " لغات وآداب" (الرباط) و"هيسبيريس" (الرباط) ومجلة كلية الآداب بفاس .